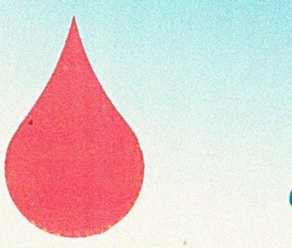


داڤيد إدواردز

داڤيد كرومويل



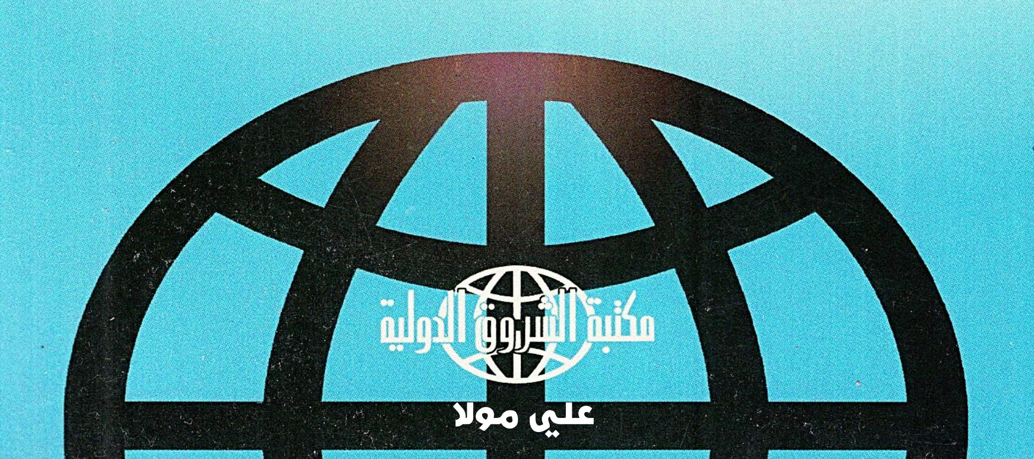
ترجمة

آمال كيلانى

حراس السلطة

أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية

عدسات الميديا



حراس السُّلطة

أسطورة (الميديا) وسائل الإعلام الليبرالية

هذه ترجمة لكتاب

Guardians of Power

The Myth of the Liberal Media

David Edwards and David Cromwell

MEDIA LENS



First published 2006 by Pluto Press
345 Archway Road, London N6 5AA

الطبعــــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـــ يناير ٢٠٠٧ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl@hotmail. com >

< shoroukintl@yahoo.com >

حراس السُّلطة

أسطورة (الميديا) وسائل الإعلام الليبرالية

داڤيد إدواردز و داڤيد كروميل

عدسات الميديا

ترجمة: آمال كيلانى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

إدواردز ، داڤيد

حراس السلطة : أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية

تأليف : داڤيد إدواردز - داڤيد كروموبل ؛ ترجمة : آمال كيلانى

ط١ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م

١٤٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم

تدمك : 3-1937-09 -977

١- الليبرالية

أ- كروموبل ، داڤيد (مؤلف مشارك)

ب - كيلانى ، آمال (مترجمة)

جـ- العنوان

٣٢٠,٥١

رقم الإيداع ٢٤٧٦١ /٢٠٠٦م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 09-1937-3

الفهـــرس

الموضوع **الصفحة**

شكر وتقدير

نود أن نعبر عن شكرنا للأشخاص التالية أسماؤهم لما قدموه من عون لنا فى هذا الكتاب، ولمشروع عدسات الميديا: مايكل ألبرت، جلبرت برنهام، جابرييل كارليل، فيل شاندلر، ناعوم تشومسكى، سو كولوم، مارك كيرتس، دينيس هاليداى، إدوارد هيرمان، ريتشارد كيبل، تيم لويلين، ماريان ماك كيجان، أوليڤر ماو، أوبرى ماير، داڤيد ميلر، ميلان راى، ليس روبرتس، آندى رويل، هانز ڤون سپونيك، چون ثيوبالد وجميع العاملين فى پلوتو پريس. ونتقدم بخالص العرفان كذلك للدعم المالى الذى قدمه ائتمان بارى آمييل ونورمان، وائتمان ليپمان ميليباند، ومؤسسة دو سواڤ، وائتمان مارمو، وصندوق تنسلى الخيرى، وللكثير من الأفراد المانحين على مدى سنوات. نود التقدم بالشكر إلى عائلاتنا لحبهم ودعمهم لنا. يود داڤيد كروموويل أن يتقدم بالشكر لفوسك، وسين، وستيوارت، ونود أن نخص بالشكر چون پيلجر لتشجيعه ودعمه لنا.



تقــديم

ذهبت إلى الغردقة بعد أسابيع قليلة من جريمة قتل السائحين فى الأقصر فى نهاية العقد الأخير من القرن الماضى . . . ووجدت أن أكثر الفنادق العالمية الكبرى قد استغنت عن معظم العاملين بها لتوفير مرتباتهم - رغم انخفاضها -(*) فى وقت انخفاض الإشغال . .

صادف بعد ذلك أن التقيت فى منزل السفير المصرى السابق فى چاكارتا السيد/ عبدالرحيم شلبى بمساعد المدير الإقليمى لبيبسى كولا (أو كوكا كولا) فى الشرق الأقصى ، وهو مهندس مصرى ، واستغربت كيف أن تلك الفنادق الكبرى التى تحقق أرباحًا هائلة - ويكفيها ٣٠٪ إشغال لتغطى مصاريفها - تستغنى بهذه البساطة عن العاملين بها لعدة شهور ، فكيف تعيش تلك العائلات التى توقف دخلها؟

فأجابنى المهندس قائلاً ليس فى المسألة أى غرابة . .

فالشركات المساهمة تعمل على تعظيم الربح وعوائد الأسهم وقيمة الأسهم . . . وإذا فشلت الإدارة فى ذلك ، فسوف يُستغنى عنها فى الجمعيات العمومية . . أما مسائل عائلات العاملين وأرزاقها . . ومثل ذلك من المسائل ، فلا تظهر فى أوراق الحسابات والميزانيات . . ولا يكترث لها أحد.

يبدأ كتابنا بتمهيد مماثل . . . وسائل الإعلام الغربية هى مؤسسات تهدف إلى

(*) لعدم وجود نزلاء . . كان لدى الباقين من العاملين فى الفنادق متسع من الوقت للتحدث معى . . . وتطرق الحديث إلى مرتباتهم . . . فوجدت أن الكثيرين منهم يتقاضون مرتبات ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ جنيه شهريًا . . بالإضافة للإقامة ووجبات الطعام .

ومن يعملون بالمطاعم يحصلون على مبلغ مماثل من الـ ١٠٪ أو الـ ١٢٪ خدمة . . . ثم يتكلم البعض عن الـ tipps (البقشيش) . . .

ومنذ أيام قليلة ، وجدت المرتبات المتدنية نفسها فى أحد أشهر فنادق شرم الشيخ ذات الإشغال الكامل .

الربح . . ليس لإظهار الحقيقة، وليس للسعى وراء العدالة، أو أى شىء مما لا يظهر فى أوراق الحسابات والميزانيات بصورة رقمية إيجابية . . .

وبالإضافة إلى أن تلك المؤسسات تهدف إلى الربح . . فإن تمويلها يأتى من المؤسسات عابرة القارات فى شكل إعلانات . . . فهى تعيش على تلك الإعلانات . . . ولا يمكنها الإساءة للمعلنين ولمصالحهم . . .

كذلك فإن وسائل الإعلام هى نفسها من إفرازات النظام الرأسمالى الهادف للربح . . . فمصالحها متماثلة مع المؤسسات الكبرى عابرة القارات . . .

ومتوافقة مع الأنظمة الرأسمالية، إن لم تكن الإمبريالية . . .

يناقش الكتاب عمل التيار الرئيسى لوسائل الإعلام الغربية، ويأخذ الكتاب العراق وأفغانستان كحالتين دراسيتين لكيفية عمل الإعلام الغربى . . .

هناك إحصائيات عن قتلى الأمريكيين والبريطانيين فى العراق، فهل هناك إحصائيات عمن قتله الأمريكيون والبريطانيون فى العراق؟ . . .

تقول إحدى الدراسات إن الرقم تجاوز - فى غضون سنتين من الغزو - مائة ألف قتيل . . . لماذا اختفت تلك الدراسة من الإعلام العالمى، الغربى والشرقى على حد سواء؟

وقبل الغزو، أفادت إحدى الإحصائيات الغربية أن الحصار تسبب فى مقتل نصف مليون طفل عراقى . .

وأعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك، السيدة أولبرايت، أنها تعتقد أن الأمر يستحق تلك التكلفة . . .

أى أمر ذلك الذى يستحق قتل نصف مليون طفل عراقى؟

قامت جرائم الإدارتين الأمريكية والبريطانية على ثلاث أكاذيب متوالية . . . كلها أثبتت لجان حكومية أمريكية كذبها . . . الأولى أن العراق يمتلك أسلحة نووية . . الثانية أن العراق له دور فى هجمات سبتمبر ٢٠٠١م، والثالثة أن العراق له صلة بتنظيم القاعدة . . . .

وبالطبع هناك الكذبة التى اختفت أيضًا تمامًا من وسائل الإعلام، والتى تقول إن صدام طرد مفتشى وكالة الطاقة الذرية. . الأمر الذى لم يحدث.

ثبت كذب كل ذلك . . . فهل يناقش الإعلام ذلك؟ . . . ولماذا لا تنسحب القوات الغازية المجرمة؟

بل إن الرئيس بوش يخطط الآن لإرسال ٤٠,٠٠٠ جندى أمريكى إضافى للعراق. .

أما أفغانستان، فقد تسبب الغزو، والحصار قبل الغزو، فى مأس إنسانية لم تشهدها أفغانستان فى تاريخها. . . من مجاعة إلى قتل وتشريد مدنيين. . . بأضعاف مضاعفة لما كان يحدث تحت حكم طالبان. . . وجاءت الإدارة الأمريكية بأفغانى يعيش فى الولايات المتحدة منذ عدة عقود، صاحب مطعم أو مطاعم، ليصبح رئيسًا للدولة. . . ويقوم حرسه الأمريكيون بصفع وزرائه على أوجههم وأقفيتهم ـ كما نقلت وكالات الأنباء ـ وأصبح الآن يبكى، أو يتباكى، لعدم قدرته على إنقاذ شعبه من القتل. . . على يد قوات طالبان أو القوات الغربية. . .

يناقش الكتاب كيف ابتلع الإعلام الغربى أكاذيب الإدارتين الأمريكية والبريطانية وجرائمهما؟

ونحن بدورنا نتساءل. . كيف ابتلعنا نحن ـ إعلامًا وحكومات ـ أكاذيب وجرائم الإدارتين الأمريكية والبريطانية وجرائمهما؟

عادل المعلم



مقدمة

بقلم: چون پيلجر

حدد حدثان ملحميان كيف ينظر كثير منا فى الدول الغربية إلى العالم من ورائنا؛ وهما الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة. أثناء قيامى بكتابة المقدمة، كانت بريطانيا قد تم استدعاؤها مرة ثانية للاحتفاء بـ «الحرب الطيبة» ضد هتلر: هذا هو «المسار الأخلاقى الذى تطوف خارجه آثام قرون من الغزو، والعبودية، والاستغلال» وذلك باقتباس عبارة ريتشارد درايتون عن آخر حصاد لمؤرخين عظام مثل نيال فيرچسون. وربما كان يشير كذلك إلى صحفيى «الاتجاه السائد».

مصطلح «الحرب الطيبة» حسبما كتب درايتون، مهر فترة ستين عاما من صناعة حرب. لقد أصبح صكًا أخلاقيا على بياض للقوة البريطانية والأمريكية. نحن ندّعى الحق فى القصف بالقنابل، والتشويه، والسجن دون محاكمة، على أساس الحرب ضد الفاشية. عندما ننقلب على أصدقاء طغاة من أمثال نورييجا، أو ميلوسوڤيتش، أو صدام، نعود فنصفهم بأنهم مثل «هتلر». وفى «الحرب الطيبة» لا نذكر الأفعال الخاطئة (درايتون، صك أخلاقى على بياض ـ صحيفة الجارديان ١٠ مايو ٢٠٠٥م).

أثناء الحرب الباردة، كان أقصى «الأمور السيئة» هو التهديد باستخدام الأسلحة النووية. كشف إعادة تصنيف الملفات الرسمية الآن الدعاية التى قامت حول «هم» و«نحن» إبان الحرب الباردة، وكأنها قصة من قصص الخيال العلمى. إن وثائق التخطيط البريطانية منذ الستينيات، استبعدت بالفعل «التهديد السوڤييتى» فى أوروبا على أساس أنه مبالغة، ولا وجود له فى معظم أنحاء العالم، حتى فى الشرق الأوسط. إن الحرب الباردة الحقيقية التى قامت بها «حكوماتنا»، لم تكن ضد الروس،

ولكنها كانت ضد الملونين والسود المستهلكين، الذين عادة ما يعيشون فى أماكن تعانى من الفقر المدقع. إنها ليست حربًا بين الشرق والغرب، وإنما هى حرب بين الشمال والجنوب، بين الأثرياء والفقراء، بين الكبار والصغار. فى الواقع، كلما صغر العدو أو الخصم، زاد التهديد؛ لأن انتصار الضعفاء قد ينقل العدوى. ولهذا فإن الضعفاء - أولئك الذين تضم أراضى أوطانهم، عادة، كنوزا شاسعة من البترول والغاز، والمعادن والأسواق المغرية - كانوا هم الأهداف الفعلية لحملات الغرب الصليبية، وما زالوا. انتشر الإرهاب الذى استخدمته دول الغرب من فلسطين إلى نيكاراجوا، ومن الهند الصينية إلى الكونجو. وعندما يقوم الضعفاء فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م - كرد فعل - بتوجيه ضربة، تبدأ حرب أسطورية جديدة، الحرب ضد الإرهاب!.

لم يتم تسجيل الإجراءات المشينة الأخيرة مثل قصف القوات الأمريكية والبريطانية للمواقع المدنية بالقنابل العنقودية، واستخدام قنابل النابالم واليورانيوم فى العراق وأفغانستان، على أنها أفعال تنم عن غزو وحشى وضار؛ بل على أنها مجرد حركة تحرير اضطرارية، وتم تبريرها بأساطير الحرب الطيبة والحرب الباردة. وكان الناقل الرئيسى لهذه الأساطير هو النظام المؤسس المعروف باسم الميديا (وسائل الإعلام) والذى توسع بشكل عشوائى. وبينما يحاول صحفيو هذا النظام تغيير تكتيكاتهم ونواياهم وقناعاتهم السياسية، فسرعان ما يعرفون - سواء بالغريزة أو بالتدريب أو بكليهما - الطبيعة الحقيقية لمهماتهم، خاصة عندما يتعرض النظام الرسمى القائم للتهديد، أو يستعد لشن حرب. ويتم إصدار التقارير عن المجتمعات من حيث تهديدها لأمننا أو نفعها لنا؛ ثم يتم تحديد الأعداء الرسميين وملاحقتهم. والتوازى بين الحرب الطيبة والحرب الباردة واضح تمامًا، ففى كلتيهما يعامل الأصدقاء الرسميون بلطف رغم أن الشواهد تتطلب العكس تماما.

إن التغير الذى حدث إنما هو فى إدراك الشعب ومعارفه؛ إذ لم يعد أحد يثق فيما يقرؤه أو يراه أو يسمعه، بل بدأ الناس يسألون ويتشككون بشكل لم يحدث من قبل. ولطالما تجاهل الصحفيون الذكاء النقدى للشعب، وبدلا من ذلك ينحازون إلى أفكار مسبقة لديهم بأنه جمهور فاتر ولا مبال، حتى يتسنى لهم إقناع ذواتهم بأنهم يقدمون للناس ما يريدونه. وحاليًا أصبح الجمهور وثيق الصلة بالميديا، ويرفض الحدود التى يضعها لهم المتخصصون على أنها «خطاب الجمهور». على سبيل المثال، أظهرت نتائج

الاقتراع أن أغلبية الشعب البريطانى وصف رئيس وزرائه بأنه كذوب : ليس مجرد شخص ضلل البرلمان، أو حرّف الحقائق، بل كذوب، وهو أمر غير مسبوق .

لقد نقلت شبكات الإنترنت هذا الرأى الصريح، واكتفت الميديا بإبراز القضايا الهامة فى رأيها، مثل فضيحة غزو العراق واحتلاله . وأثيرت الأسئلة التى كانت ممنوعة فى وقت ما، مثل : عن طريق تضخيم أكاذيب بلير، وبوش، وليس عرضها فحسب، هل تعد الصحافة بهذا الفعل متورطة فى جريمة العراق؟ لطالما تردد هذا السؤال كثيرا على شبكة الإنترنت البريطانية الشهيرة <www.medialens.org> . كان لكل من داقيد إدواردز وداقيد كرومويل - وهما من صمما مشروع عدسات الميديا وقاما بتحريره - تأثير الإنترنت نفسه وفى وقت قصير للغاية، وذلك عن طريق مساءلتهما لمن قيل إنهم يرسمون خريطة التاريخ، والذين غيروا تماما مجرى التاريخ الحديث . لقد قاما بتمزيق ذلك الصك الأخلاقى على بياض والذى أشار إليه ريتشارد درايتون، وكشفا عن ذلك الفساد الأخلاقى المتمثل فى حق القصف بالقنابل، والتشويه، والسجن دون محاكمة . . . ! ومما لا شك فيه أنه لولا جهود عدسات الميديا أثناء الهجوم على العراق واحتلاله، لظل هذا الحدث المؤسف فى طى النسيان وفى نفايات التاريخ .

إن عدسات الميديا لا تشغل نفسها بالأهداف السهلة، مثل صحيفة صن التى يملكها مردوخ، بل تركز على قطاع الميديا الذى يفاخر بموضوعيته، وحياده، وتوازنه (مثل محطة بى . بى . سى) وليبراليته، ووضوحه (مثل الجارديان) . لم يحدث منذ صدور كتاب **صناعة الإجماع** لناعوم تشومسكى وإدوارد هيرمان أن كان لدينا مثل هذا المرشد الواضح المعالم والواسع المعرفة خلال شبكة الميديا المليئة بالبرامج والإشارات المموهة . حقا إنهما قاما بوظيفة الصحفى الحقيقى : لقد دونا السجل باستقامة وقوامة .

ولهذا السبب، فإن كتاب **حراس السلطة** يجب أن يدرّس فى كل كلية إعلامية . إنه أهم كتاب لم يبارح ذاكرتى عن الصحافة . فى الصفحات التالية وُضعت أفضل إنذارات عدسات الميديا معا، ونُظِّمت فى سياق تاريخى . إنها ليست مصدرا لنقد لاذع، على العكس، فلغتها ونبرتها فيها احترام للصحفيين، ولا تخطئ العبارات المهذبة فى تحليلها اللاذع الذى تعرضه . إنها تناقش المحررين، والمنتجين، ومديرى

الميديا؛ وحججها مدعومة بالحقائق والبحث، وحس أخلاقى، ذلك الحس الذى تستشعر بعد لحظات ثقله.

وأنا أقوم بكتابة هذه المقدمة، كانت عدسات الميديا مشغولة مع إذاعة بى. بى. سى حول التقارير عن هجوم أمريكا على مدينة الفالوجا العراقية، وتساءلت عن السبب فى التزام الصمت حول الاجتياح الوحشى للفالوجا فى نوڤمبر ٢٠٠٤م، تلك المدينة التى كانت بالفعل تحت الحصار، حيث إن الأمريكيين قبل ذلك التاريخ بستة أشهر لم ينكروا أنهم تسببوا فى حدوث ٦٠٠ حالة وفاة على الأقل. وعلى شبكة الإنترنت، أدلى بعض الصحفيين المستقلين، مثل الشجاع داهر الجُميْل الأمريكى اللبنانى بتقارير عن طراز من الوحشية الأمريكية متمثل فى قصف المستشفيات، والقبض على العاملين فيها وإطلاق الرصاص عليهم، بل وعلى المرضى، ومنع وصول الإمدادات الطبية والدم اللازم للحالات الحرجة. أدلى الأطباء بقصص مرعبة عن قوات المارينز الأمريكية وهى تقصف المنازل وتهاجمها، وتصوب البنادق نحو المسنين والأطفال، وبعض من أفراد الشعب يلوح بالرايات البيضاء لتفادى البطش. ولم تذكر بى. بى. سى ـ الموضوعية المحايدة ـ شيئا عن كل ذلك.

سألت عدسات الميديا بى. بى. سى لماذا، وكيف لم يدل مراسلوها بتقارير عن استعمال الأمريكيين للناپالم؟ والذى وافق عليه الكولونيل چيمس آليس قائد الفرقة ١١ من قوات المارينز الجوية، والذى قال: لقد أطلقنا قنابل الناپالم على هذه المعابر، ولسوء الحظ أنه كان فوقها بعض الأفراد.. (آليس، عن بنكومب، اعترفت الولايات المتحدة باستخدامها قنابل الناپالم فى العراق، عدد الأحد من جريدة الإندپندنت الموافق ١٠ أغسطس ٢٠٠٣م). كل ذلك إلى جانب تقارير عن القنابل العنقودية، والحارقة، والغازات السامة، وغيرها من الشواهد الوحشية التى التقطها مراسلو بى. بى. سى حول العالم، لكنهم لم يذيعوها.

لقد أفصحت هيلين بوادن مديرة أخبار بى. بى. سى لعدسات الميديا أن المراسل الدائم للشبكة فى العراق پول وود لم يرسل تقاير عن أى من هذه الأحداث؛ لأنه لم ير أيّا منها. وكتبت كذلك أن كبير الباحثين فى لجنة مراقبة حقوق الإنسان قد أجرى بعض التحقيقات، لكنه لم يجد أى أدلة على هذه المزاعم! سألت عدسات الميديا مسئول

حقوق الإنسان عن ذلك الأمر ، فأخبرها أن منظمة حقوق الإنسان أصابتها الحيرة بشأن هذه الادعاءات الكاذبة من بى . بى . سى .

مثل كثير من «إنذارات» عدسات الميديا ، استمر مراسلها فى إلقاء الضوء والكشف عن سبب حجب مراسلى التليفزيون ـ المصدر الرئيسى لمعلومات الشعوب فى جميع أنحاء العالم ـ لكل هذه الحقائق عن مشاهديهم .

فى الواقع ، فتحت عدسات الميديا أبواب النقاش فى القضايا التى كانت فيما مضى فى طى الكتمان ؛ من أجل الحفاظ على قواعد نادى الميديا ومحرماته . فى رأيى أن أكبر إنجاز لعدسات الميديا تستحق عليه الثناء والإطراء ، هو أنها اخترقت الموقف الدفاعى لكثير من الصحفيين ، وشجعتهم على مراجعة المبادئ التى يجب أن يعملوا وفقا لها ، عن الأمور الخفية ـ حتى جدول الأعمال الذى لا يُدرك أو يُشعر به ـ والرقابة عن طريق الحذف ، وأن يضعوا نصب أعينهم سبب اختيارهم لمهنة الصحافة حتى يمكنهم الأداء على أكمل وجه . وبالتأكيد ـ كصحفى ـ أحيى الاثنين داڤيد ، وداڤيد ، نحن فى حاجة إلى يقظتهما ، وإلى سعيهما الدءوب إلى الوصول إلى الحقيقة الآن أكثر من أى وقت مضى .

***

الفصل الأول

وسائل الإعلام

محايدة، وأمينة، وسيكوپاتية



ظهر سلوك آخر تمثل فى عمق عدم الثقة. طالما كان معظم ما نسمعه إما غير حقيقى كليةً، أو يحمل نصف الحقيقة ونصف التشويه، وطالما كان ما نقرؤه فى الصحف هو عبارة عن تفسيرات محرفة تستخدم كحقائق، تصبح أفضل خطة فى مواجهة كل ذلك منهجًا شكيًّا جذريًا. وافتراض أن معظم ما نسمعه هو إما كذب أو تشويه للحقائق (إريك فروم، فن الوجود، Art of Being Continuum، ١٩٩٢م، ص٤٤).

الاستحواذ على الآخر - «الصحافة الحرة» التابعة لمؤسسات الأعمال

حتى كلمة ميديا (وسائل الإعلام) كلمة إشكالية. إنها جمع لكلمة ميديوم (medium) أى وسيط، التى يمكن تعريفها بأنها مادة يتم من خلالها نقل الانطباعات إلى مشاعرنا. إن الهواء على سبيل المثال يعمل كوسيط لنقل الصوت - إنه حامل محايد ولا مبال للذبذبات المتعلقة بالطاقة.

تعمل منظمات الأخبار على جعلنا نعتقد أنها تنقل إلينا المعلومات بطريقة محايدة وطبيعية. إنها تعرض نفسها كما لو كانت نوافذ حقيقية على العالم. وهكذا رغم المناقشات الوفيرة حول ما يظهر فى هذه النوافذ، لم تتم مناقشات مماثلة حول من قام بهيكلتها، حول أهدافهم وقيمهم، حتى أن أيّا منا قد يعتقد أن وسائل الإعلام كانت دائما على هذا النحو الذى نراها به؛ أى أنها ببساطة من حقائق الحياة، بل إنها هبة من الله.

لكن علينا أن نُدخل فى الاعتبار حقيقتين بارزتين: ١- أن عالمنا المعاصر تسيطر عليه مؤسسات عملاقة متعددة الجنسيات. ٢- أن نظام تقارير الميديا نفسه عن هذا العالم مكون من مؤسسات عملاقة. وفى الواقع، فإن مؤسسات الميديا ملك لهذه المؤسسات العملاقة نفسها، التى عليها أن تغطى أخبارها وأعمالها.

كيف يمكن أن تقل معارف المرء حتى تقصر عن إدراك أن أمامه مشكلة؟ ومع ذلك فإن ما يقرب من مائة فى المائة من الصحفيين المحترفين يغيب عن وعيهم هذا الإدراك، على الأقل إذا ما كانت كلماتهم تحظى بالتصديق.

يحمل رضا الميديا عن الصمت على قبول معنيين متناقضين فى اسم «الصحافة الحرة التابعة لمؤسسات الأعمال» لا يُعد دلالة على الإجماع على الأمانة والعقلانية فى مجتمع حر، بل هو عَرَض لتفشى الفساد فى الميديا، ولتوعك ثقافى عميق يؤذن ببدء علة لا شفاء منها. ببساطة شديدة الصمت هو الكذب.

فى هذا الكتاب، سوف نوضح أن مؤسسات وسائل الإعلام ـ ليست فقط الجناح اليمينى لصحافة المحافظين، بل حتى الميديا الليبرالية الأكثر احتراما ـ مثل إذاعات بى. بى. سى، ومثل صحف الجارديان، والأوبزرڤر والإندپندنت ـ ما هى إلا نظم دعاية لصالح النخبة. وسوف نظهر كيف أنه حتى الحقائق الواضحة المتعلقة بأكثر الموضوعات حيوية ـ مسئولية حكومتى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة عن الإبادة الجماعية، والأعمال الإجرامية ـ على مستوى العالم ـ لحساب مؤسسات الأعمال، والتهديد الجوهرى لحياة البشر ـ قد تم أيضًا تحريفها، وتقزيمها، وتهميشها، وتجاهلها. وكلما تعمقنا فى الكتاب، سوف يلاقى القراء الاتجاه العقلانى السائد فى المناقشة والتحليلات الجدلية ـ ثم بعد ذلك وعلى حين غرة، صمتًا غير مبرر. سوف نصطدم بمناقشة جريئة، مقنعة ـ ثم بعد ذلك لا عقلانية مذهلة.

بالنسبة لقراء تعرضوا لمؤسسات الميديا على مدى عدة عقود، قد يبدو الزعم السابق غير عادى وغريبًا، ورد الفعل الطبيعى هو الإصرار على: «آسف، لكننا نطّلع فى الميديا على تقارير أمينة وتعقيبات». نحن نقرأ لروبرت فيسك فى الإندپندنت، وسيوماس ميلن فى الجارديان، وچون پيلجر (وعدسات الميديا!) فى النيو ستاتسمان. لطالما وُجه النقد اللاذع للحكومة بسبب سلوكها فى الإعداد لشن حرب على العراق، ومؤسسات الأعمال معرضة لنقد عنيف وتحقيقات ـ مثال على ذلك فضيحة الإنرون، وذلك من أجل الوصول للحقيقة!

للأسف، كل ذلك ليس كما يبدو فى الظاهر. كما هو الحال دائمًا، فالشر كله يكمن فى التفاصيل؛ وهو واضح وضوحًا تامًا إذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً ـ عندما يمكننا أن

ندرك مع عالم النفس إريك فروم «باثولوچيا (علم أمراض) السَّواء». عندئذ سوف نرى أن الميديا ليست نافذة على العالم، بل بالأحرى هى رسم صورة للعالم.

إن تصحيح الرؤية المحرّفة للميديا يبدأ بفهم كيفية تشويه هذه الرؤية وسببه؛ الأمر يبدأ فى الواقع بفهم البنية الأساسية لهذا الكيان المجرد الغريب ـ مؤسسة الأعمال.

إخراج المسئولية الاجتماعية من القانون

يلاحظ أستاذ القانون الكندى چويل باكان فى كتابه **«المؤسسة»** أن المؤسسات ملزمة قانونيّا بتعظيم عائدات حملة أسهمها، وأن المديرين التنفيذيين للشركة ملزمون بإخضاع كل الاعتبارات للربح:

> يمنع قانون المؤسسة مسئوليها من أن تكون من مسئولياتهم مساعدة العمال، أو تحسين البيئة، أو مساعدة العملاء على توفير أموالهم. يمكنهم القيام بهذه الأشياء من جيوبهم الخاصة، كمواطنين عاديين. أما كمسئولين فى المؤسسة، فهم حراس على أموال أناس آخرين، ليس لهم سلطة قانونية فى ملاحقة مثل هذه الأهداف كغايات فى حد ذاتها ـ بل فقط كوسائل لخدمة مصالح الشركة الخاصة، التى تعنى عادة تعظيم ثروة حملة الأسهم. وهنا تصبح المسئولية الاجتماعية للمؤسسة غير قانونية ـ على الأقل حينما تكون المؤسسة أصلية (چويل باكان، **المؤسسة** ٢٠٠٤م، ص٣٧، **The Corporation Constable**).

هذا الحظر على المسئولية الاجتماعية تأسس فى أحكام قانونية على مدى مئات السنوات. ففى قضية هامة فى إحدى المحاكم فى القرن التاسع عشر ـ على سبيل المثال ـ أعلن لورد بوين:

> لا مكان لأعمال الإحسان فى مجلس الإدارة. هناك على أى حال أعمال خيرية تؤدى فى النهاية إلى ترديد اسم المؤسسة الخيّرة أكثر مما يفعل أى إعلان، وإلى هذا المدى وفى هذا الثوب (وأعترف أنه ليس زيّا خيريّا) ممكن أن تكون الأعمال الخيرية موضوعة على جدول العمل، ولكن هكذا وحسب دون أى هدف آخر (مقتبسة من المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٩).

التوابع التى لا يمكن تفاديها ـ كما كتب باكان ـ هى التى يتم وصفها برقة ولطف بأنها الأشياء الخارجية : الأضرار الروتينية والمعتادة التى تلحق بالآخرين ـ العمال، العملاء، المجتمعات، البيئة. وذلك ـ كما يلاحظ باكان ـ يجعل الشركة على وجه التحديد «مخلوقا سيكوپاتيًا»، غير قادر على الإدراك أو العمل من منطلق دوافع أخلاقية حتى يحجم عن إيذاء الآخرين (المرجع السابق، ص٦٠).

يفسر لنا روبرت هنكلى، الذى أمضى ٢٣ عامًا كمحامى الأوراق المالية فى المؤسسات ويقدم المشورة للمؤسسات الكبرى فى مجال أوراقها المالية :

> عندما تراق الكيماويات السامة، أو تُدمَّر الغابات، أو يصبح الموظفون فقراء، أو تُخرّب المجتمعات بسبب قلة النباتات، تنظر المؤسسات إلى هذه الأمور على أنها جانب غير هام يؤثر فى خارج محيط نشاطها. لكن إذا ما انخفضت قيمة أسهم المؤسسة، فهنا تقع الكارثة. والسبب فى ذلك أنه فى داخل إطار عملنا القانونى، فإن انخفاض قيمة الأسهم يعرض المؤسسة إلى أن يشتريها آخرون، أى إلى الضياع، أو يصبح مديرو الشركة التنفيذيون فى خطر فقدان وظائفهم، وفى النهاية تكون النتيجة الطبيعية أن يرتفع الحد الأدنى لمكاسب المؤسسة، وينخفض الحد الأعلى لخدمة المجتمع والصالح العام. ويطلق على ذلك خصخصة المكاسب، إلقاء تكاليف ذلك خارج المؤسسة على عامة المجتمع. (كيف تلغى المؤسسة المسئولية الاجتماعية، يناير/ فبراير ٢٠٠٢م،
>
> (www.medialens.org/articles/the_articles/articles_2002/rh_corporate_responsibility.htm/)
>
> يضيف رجل الأعمال روبرت مونكس: المؤسسة آلية خارجية، كما أن سمك القرش آلية قاتلة . . . لا تطرح أى أسئلة حول الحقد أو الإرادة؛ فإن المؤسسة تمتلك بداخلها ـ كما يمتلك سمك القرش بداخله ـ المواصفات التى تجعل كلاً منهما يقوم بما خلق للقيام به (باكان، المؤسسة، ص٧٠).

ألا يبدو الوصف السابق وصفًا غريبًا عن نتاج مؤسسات الميديا الضاحك المبهج، الدمث، العالى التقنية؟ الإعلانات مليئة بالدعابة والمرح، مقدمو البرامج التليفزيونية

مشرقون بالابتسامات والحميمية. هل يمكن أن يكون ذلك فى الواقع نتاج نوع من النظم السيكوپاتية؟ إنها فكرة غاية فى الاضطراب - نحن نكبر بمصاحبة الميديا، لقد تعودنا على النظر إليها كجزء طبيعى من حيواتنا.

ما علينا إلا تأمل موقع مراقبة الميديا الأمريكية المسمى: العدالة والدقة فى التقرير (FAIR)، والذى يصف كيفية قلق مديرى الميديا التنفيذيين من أن طوفان الصور المروعة الذى يتدفق داخل غرف المعيشة من العراق وأماكن أخرى لن يشجع المعلنين. شرحت لنا - وبثقة تامة - المتحدثة باسم شركات چنرال موتورز أن شركتها لن تقوم بالإعلان فى البرامج التليفزيونية الخاصة بالأعمال الوحشية فى العراق، بينما أفاد مدير تنفيذى إعلامى: لا يرغب أحد فى مشاهدة إعلانات مرحة بعد الصور والحكايات المروعة (پيتر هارت وچولى هولار، الخوف والاستحسان ٢٠٠٤م - كيف تشكل مراكز القوى الأخبار؟، مارس/ أپريل ٢٠٠٥م www.fair.org/index .php?page=4867).

كل ما سبق ذكره يساعد فى شرح سبب تخصيص البرامج الإخبارية التقليدية فى القنوات التليفزيونية المحلية للولايات المتحدة ست دقائق وواحدًا وعشرين ثانية للرياضة وحالة الجو فى برنامج مدته نصف ساعة، بينما تخصص نشرة الأخبار التقليدية فى القنوات التليفزيونية القومية (العابرة للولايات) ٣٨ ثانية فقط من النشرة التى تستغرق نصف ساعة للسياسة الخارجية الأمريكية، بما فيها الحرب فى العراق. (التايم، ٢٨ فبراير، ٢٠٠٥م).

إن ما فعله الغرب بالعراق شىء يستعصى على التصديق - لقد أوقعنا أعدادًا مهولة من الضحايا والمعاناة على دولة من دول العالم الثالث. ومع ذلك لا نجد لمحة من الحقيقة على شاشات تليفزيوناتنا؛ لأن الجثث المدفونة والمحترقة تعوق بيع السيارات وخلة الأسنان! إذا لم يكن ذلك يعكس مجموعة سيكوپاتية من القيم، فماذا يفعل؟

من الأخ الكبير
نموذج للدعاية

يقدم كل من إدوارد هيرمان وناعوم تشومسكى فى كتابهما الملهم **صناعة الإجماع - الاقتصاد السياسى ووسائل الإعلام** (پانثيون، ١٩٨٨م)، نموذجهما عن الدعاية فى

الميديا . فى مقال تال كُتب فى عام ١٩٩٦م، يتأمل إدوارد هيرمان فى أصول نشأة النموذج :

> لطالما تأثرنا بالانتظام الذى تعمل به الميديا من خلال فروض مقيدة، مستندة بشدة ودون تمحيص على مصادر معلومات النخبة، وتشارك فى حملات الدعاية التى تكون فى صالح النخبة . وعند محاولة شرح سبب إقدامها على ذلك، فلا بد أن نبحث عن العوامل الأساسية التى يمكن أن تمثل الجذور الوحيدة المحتملة لأنماط من السلوك والأداء النظامى . (العودة مرة ثانية لنموذج الدعاية، مانثلى ريڤيو، يوليو ١٩٩٦م)

قد يبدو ذلك رد فعل منطقيّا للغاية، ومع هذا، فقد رفضه الاتجاه السائد فى الميديا . ولندخل فى اعتبارنا أن نموذج الدعاية لهيرمان وتشومسكى قد جاء ذكره أربع مرات بالاسم فى الصحف البريطانية القومية منذ عام ١٩٨٨م (بما فى ذلك ذكره مرتين فى دوريات الكتب) . ذكرت الجارديان الواسعة الانتشار النموذج بدقة مرة واحدة فى هذه الفترة . أما الشرح التفصيلى من النوع الذى نحن بصدد قراءته حاليّا، فلم يظهر أبدا فى الصحف القومية البريطانية .

كان هيرمان وتشومسكى محقين فى لفت الأنظار لنماذج أداء الميديا . كما سوف يكتشف القارئ على مر صفحات هذا الكتاب، فإن الميديا تلتزم بمثابرة وإصرار مرعب بفروض مسبقة عن أولويات القوى الغربية وأهدافها .

لكن كيف يحدث ذلك فى مجتمع حر؟ بالتأكيد لا يمكن أن نُرجع المثابرة والإصرار الحرَفى بين آلاف من الصحفيين والعاملين فى الميديا، الذين يعملون فى مئات من منظَمات الميديا إلى نظرية تآمرية؛ فإن هذه الفكرة تبدو غريبة إلى أقصى حد - إن الآليات السياسية لإنفاذ سيطرة الأخ الأكبر لا وجود لها، إن خطة بهذا الحجم سوف يتم على الفور كشفها بواسطة أحد المنفذين .

إن الاقتراح الأكثر قابلية للتطبيق هو اقتراح هيرمان وتشومسكى، أن أداء الميديا يتشكل على نحو أكبر بقوى السوق، عن طريق الحد الأدنى من أهداف مؤسسات الميديا التى تعمل داخل مجتمع رأسمالية - الدولة . وقد كشفا عن وجود عدد من

المرشحات داخل النظام نفسه، تعمل دون توقف لتشكيل نتاج الميديا. يشرح هيرمان هنا باختصار شديد:

> إن العوامل البنيوية الجوهرية مستقاة من حقيقة أن الميديا المسيطرة مطوقة بإحكام بنظام السوق. إنها مشروعات أعمال تسعى للربح، مملوكة لأفراد غاية فى الثراء (أو شركات)؛ تمول بشكل كبير عن طريق المعلنين الذين هم أيضا كيانات تسعى للربح، والتى تسعى إلى أن تظهر إعلاناتهم فى بيئة داعمة للبيع. تعتمد الميديا أيضا على الحكومة ومنشآت الأعمال الضخمة كمصادر للمعلومات، وتتسبب كل من الكفاءة والاعتبارات السياسية والمصالح المتداخلة فى درجة معينة من التضامن، تسود بين الحكومة ومؤسسات الميديا الضخمة، وغيرها من مؤسسات الأعمال.
>
> توضع الحكومة ومؤسسات الأعمال فى أماكن مناسبة (وهى ثرية بدرجة كافية) كى تستطيع الضغط على الميديا بتهديدات بسحب الإعلانات أو تراخيص التليفزيون، وقضايا قذف وتشهير، وغيرها من أساليب الهجوم المباشرة وغير المباشرة. بالإضافة لأن الميديا مقيدة بالأيديولوچية السائدة، التى تجسد تماما معاداة الشيوعية قبل فترة الحرب الباردة وأثناءها، ويتم تعبئتها لمنع الميديا من انتقاد الهجوم على الدول الصغيرة التى توصم بأنها شيوعية.
>
> هذه العوامل المتصلة ببعضها البعض، تعكس الإمكانات المتعددة المستويات لمؤسسات الأعمال القوية، والتجمعات (على سبيل المثال المائدة المستديرة لمؤسسات الأعمال، وغرفة التجارة الأمريكية، واللوبيات الصناعية، ومجموعات الصدارة) التى تمارس نفوذها على تدفق المعلومات (المرجع السابق).

وهكذا فإن مؤسسات الميديا هى تكتلات كبرى نموذجية مثل الأنباء الدولية، وسى. بى. إس (التى اندمجت حاليًا مع وستنجهاوس)، وشبكة إذاعة تيرنر (التى اندمجت مع تايم ـ وارنر) ـ والتى قد تنتمى إلى مؤسسات أصلية أكبر مثل چنرال إليكتريك (مُلاك إن. بى. سى).

كل هذه المؤسسات مرتبطة بسوق الأسهم، كل أصحابها من الشخصيات واسعة الثراء الجالسة فى مكاتب الإدارة، والكثيرون منهم لهم اتصالات مكثفة مع شخصيات ومشروعات فى مؤسسات أخرى. على سبيل المثال، وستنجهاوس وچنرال إليكتريك مؤسسات ضخمة متعددة الجنسيات، منغمسة بشدة فى إنتاج الأسلحة والطاقة النووية.

لا يصعب إدراك كيف توفق الصحافة بين حيادها وهذه العوامل. كتب آندرو نيل المحرر السابق لدى مردوخ عن رئيسه السابق: يتوقع روپرت أن تدافع صحفه بتوسع عن معتقداته التى هى عبارة عن مزيج من جناح اليمين الجمهورى من أمريكا مختلط بنظرة تاتشرية نقية من بريطانيا (آلان روزبريدجر، **الأوقات المريرة** - إذا كنت أحد أفراد روپرت مردوخ فأنت محرر جيد فقط إذا ما أطعت الأوامر، الجارديان، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٦م). يقبل كل من پيتر جولدنج خبير الميديا، وجراهام مردوخ على أنه «باستطاعة مالكى مؤسسات الميديا تحديد الخط التحريرى. . للصحف ومحطات الإذاعة التى يملكونها (وسائل الإعلام والمجتمع، آرنولد، ١٩٩٦م، ص١٥). فيما يلى عبارة اقتبستها FAIR من أحد مراسلى صحيفة أمريكية يمتلك رؤساؤه أيضًا محطة تليفزيونية:

> عندما نمى إلينا أن تقييم أداء محطة نيلسن التليفزيونية سيصدر عما قريب، أيقنت أن علىّ أن أكتب قصة مطولة تشيد بالمحطة التى نشارك فى امتلاكها وبالتقييم، هذا إذا ما كانت النتيجة طيبة، وأن أتكتم الأمر كله إذا ما حصلت المحطة على تقييم منخفض. ومثال آخر، كنت منذ سنوات قليلة مضت أقوم بعمل مسح أطرح فيه أسئلة على القراء عن رأيهم فى برامج الأخبار فى التليفزيون المحلى. أخبرنى مديرى العام بعد ذلك أننى أقوم بعمل قد يؤثر فى محطتنا الأخرى التى تعد شريكة لنا، وأن علىَّ أن أبحث الأمر مع المسئولين فيها فى البداية. وصلتنى الرسالة، ولم أقم بمثل هذا العمل أبدا منذ ذلك الحين (هارت وهولر، الخوف والمحاباة، ٢٠٠٤م).

المفروض أن تقوم الصحف بعرض الأحداث المثيرة لتجذب قراءها، وأن تفسح مساحة كبيرة للإعلانات؛ كى تغطى تكاليف الإنتاج؛ وبغير ذلك فإن سعر بيع

الصحيفة سيكون فلكيّا، مما قد ينتج عنه توقفها عن الصدور. إن أكثر صحف بريطانيا توزيعا وشهرة - الجارديان والأوبزرڤر والإندپندنت - تعتمد على الإعلانات بنسبة ٧٥ فى المائة أو أكثر من دخلها الكلى (پيتر پيرسون، الحرب: ما فائدتها؟ الأوبزرڤر، ٧ أكتوبر ٢٠٠١م).

يمكن للتهديد بسحب الإعلانات أن يؤثر فى المحتوى التحريرى. ففى أپريل ٢٠٠٥م، نشرت الإندپندنت أن چنرال موتورز سحبت إعلاناتها من واحدة من أكبر الصحف الأمريكية، لوس أنچليس تايمز، بعد أن طلبت من المدير العام التنفيذى ريك واجونر أن يقدم استقالته. وقررت شركة صناعة السيارات وقف إعلاناتها فى نشرات الساحل الغربى نظرا لأخطاء واقعية وسوء عرض (كاترين جريفيث)، لقد سحب بالفعل المدير العام المغاضب الإعلانات من لوس أنچليس تايمز (الإندپندنت ٩ أپريل، ٢٠٠٥م). وصفت FAIR كيف حصل مسح للعاملين فى الميديا الأمريكية على إجابات بخصوص ضغوط المعلنين التى تحاول أن تشكل التغطية الإعلامية، وكذلك التحكم الخارجى فى السياسة التحريرية (هارت وهولار، الخوف والمحاباة ٢٠٠٤م).
فى مايو ٢٠٠٥م، أخبر عملاق التمويل مورجان ستانلى، الناشرين الأساسيين عن الخطوط الإرشادية للأخبار والقصص السلبية التى قد تجعلها توقف إعلاناتها. يشمل عقدها للإعلان ما يلى:

> فى حالة أى تغطية تحريرية مُعترض عليها، لا بد من إبلاغ الوكالة، لاحتمال أن يستلزم ذلك تغييرا فى آخر لحظة. إذا صدر موضوع مسيء، فإن جميع إعلانات مورجان يتم إلغاؤها لمدة لا تقل عن ٤٨ ساعة (چون فاين، مورجان ستانلى، سياسة سحب الإعلانات من الصحف كرد فعل على أى تغطية تحريرية غير مرغوب فيها، ١٨ مايو ٢٠٠٥م).

لاحظ روبرت ماك شيسنى، أستاذ علم الاتصالات فى جامعة إلينوى أن الصحافة المحترفة تعتمد بشدة على المصادر الرسمية. يجب على المراسلين أن يتحدثوا مع المتحدث الرسمى لرئيس الوزراء، والسكرتير الصحفى للبيت الأبيض، وجمعيات مشروعات الأعمال، وقادة الجيش. «كل ما يقوله هؤلاء الأشخاص يعد أخبارا. وجهات نظرهم مشروعة بطريقة آلية». بينما لاحظ ماك شيسنى أنك إذا ما تحدثت إلى

مساجين، أو مضربين عن العمل، أو متشردين، أو محتجين، فعليك أن تصور آراءهم على أنها لا يمكن التعويل عليها، وإلا سوف تكون مؤيداً لهم، وبالتالى لن تكون صحفيّا محترفًا «محايداً» (مقابلة شخصية أجراها روبرت چنسن، فى مجلة صَنْ: بالتيمور، سپتمبر ٢٠٠٠م).

ومنظمات الميديا تتعرض لضغوط مكثفة من مدفعية الدولة ـ المؤسسات. تتخذ تلك الضغوط شكل خطابات، أو برقيات، أو مكالمات تليفونية، أو مناشدات، أو دعاوى قضائية، أو خطب فى البرلمان، ونماذج أخرى من الشكاوى والتصرفات العقابية. تقوم منظمات مشروعات الأعمال بانتظام بتوحيد صفوفها لتكوين مدفعية مضادة.

ففى صيف عام ٢٠٠٣م، شنت الحكومة البريطانية حملة هجوم مرعبة ضد بى. بى. سى. بعد عام، قدم مراسل بى. بى. سى أندرو جيليجان، ورئيس مجلس الإدارة جاڤين داڤيز، والمدير العام جريج دايك، استقالاتهم، وإلا كانوا سيصرفون من الخدمة. ونقل مدير أخبار بى. بى. سى ريتشارد سامبروك إلى وظيفة أخرى. حدث كل ذلك رغم حقيقة أن هؤلاء الذين عارضوا الحرب، تكفلت الأحداث التى جرت فى العراق بتبرئتهم.

تستغل المصالح القوية بانتظام الأيديولوچيات السائدة، مثل مناهضة الشيوعية، والقضاء على الإرهاب، ومناشدة الشعور الوطنى، حين تستهدف أى معارضة.

فى مايو ٢٠٠٤م، شجب الصحفيون والساسة البريطانيون الصور التى نشرت فى الديلى ميرور والتى صورت معاملة الجنود البريطانيين لسجناء العراق. ادعت القوات العسكرية البريطانية أن الصور ملفقة. وأدين محرر الميرور پيرز مورجان ـ وهو المعارض الشرس للحرب ـ بشدة وبترهيب، بأن ما فعله أمر يضيف مزيدا من الكراهية إلى القوات البريطانية فى العراق، وبذلك يعرض حياة الجنود للخطر. فى مقابلة شخصية مع مراسل محطة بى. بى. سى، قال ميلانى فيليپس صاحب العمود الشهير فى صحيفة ديلى ميل: أعتقد أن مثل هذه الأعمال تعد من قبيل الخيانة، إنها موجهة ضد مصالح هذا البلد. إن نشر مثل هذه الأكاذيب فى وقت الحرب يسلّط على قواتنا تلك الأضواء المرعبة، وهذا يعد من الأفعال التى لا يمكن الصفح عنها أو غفرانها

(أخبار المساء، بى. بى. سى، ١٤ مايو ٢٠٠٤م). أما فى مجلس اللوردات فقد تساءل لورد ماجيناس:

> ألا يقارن هذا النشاط غير الأمين لپيرز مورجان بخيانة وليام چويس؟ أليست هذه خيانة عظمى، وأن على لورد آخر الزمان هاو ـ هاو أن يكون ملتزما بحدود القانون؟ أى تصرف ستتخذه الحكومة ضد هذا المحرر السابق ـ بما فى ذلك إدانته بأعمال إجرامية ـ سيكون له ما يبرره (مورجان «شبيه الخائن لورد هاو ـ هاو»، الإكسپريس، ٢٨ مايو، ٢٠٠٤م).

أعفى پيرز مورجان من منصبه على يد ترينت ميرور، بضغط من حملة الأسهم الأمريكيين. لاحظ محرر شئون مشروعات الأعمال فى بى. بى. سى چيف راندال أن: «هذه المؤسسات لا تضحى بمثل هذه الشخصيات البارزة فى الميديا لمجرد التسلية، لكنها كذلك لا تغمض عينيها عن تصرفاتهم» (أخبار العاشرة لمحطة بى. بى. سى. ١٤ مايو ٢٠٠٤م).

بعد مرور عام، وفى مايو ٢٠٠٥م، نشرت صحيفة صن ـ المؤيدة للحرب وخصم جريدة الميرور ـ صوراً فوتوغرافية لصدام حسين بملابسه الداخلية. وكانت قد نشرت من قبل صوراً عن القبض على صدام، والفحص الطبى الذى أجرته عليه القوات الأمريكية بشكل بدا أمام كثيرين من العراقيين خاليًا من الاحترام ومهينا ـ استشهد المتمردون بهذا الحادث كعامل أدى إلى حفزهم على حمل السلاح. ذكر ترينت دوفى المستشار الصحفى للرئيس بوش أن نشر صور صحيفة صن يعد خرقًا للقواعد العسكرية الأمريكية، وربما كذلك لميثاق چنيڤ. وأضاف: أعتقد أن ذلك قد يكون له أثر خطير (داڤيد إى. سانجر وآلان كوويل، صور صدام الفوتوغرافية فى تلك الصحيفة، دفعت الولايات المتحدة إلى طلب إجراء تحقيق، نيويورك تايمز، ٢١ مايو ٢٠٠٥م).

كان توقيت نشر الصور سيئًا للغاية ـ إذ أن ٦٢٠ شخصًا على الأقل، من بينهم ٢٨ من قوات الولايات المتحدة المسلحة قد قتلوا فى موجة من العنف منذ ٢٨ أپريل، عندما أعلن رئيس الوزراء العراقى ـ إبراهيم الجعفرى ـ تشكيل حكومة جديدة بأغلبية شيعية. ولكن بينما نادى عدد كبير من السياسيين وكبار العاملين فى الميديا بطرد محرر الميرور المناهض للحرب من الخدمة لتعريض حياة البريطانيين للخطر، فإن مدير تحرير الصن،

جراهام دودمان، لم يصدر ضده أى نقد من أى نوع تقريبًا ـ لم تكن هناك احتجاجات حول الخطر الذى يحيق بالقوات البريطانية، ولم يطالب أحد بطرد دودمان.

صعود مناسب للصحافة المحترفة

من الحقائق الجديرة بالملاحظة أن المفهوم الحديث حول صحافة موضوعية يرجع إلى زمن بعيد يزيد عن مائة عام بقليل. قبل ذلك، حيث كان الفهم السائد أن على الصحفيين إقناع الجمهور وإعلامه. لم يكن القلق يعترى أيّا منا إذا ما كانت الصحف منحازة لجانب أو فكرة ما طالما أن الجمهور حر فى الاختيار من مجموعة واسعة من الآراء. ولا يداخل أحدًا الشك فى أن الصحافة التجارية كانت ناطقة بلسان الأثرياء الذين يمتلكونها.

أثار فيرديناند لاسال مؤسس أول حزب عمل ألمانى مستقل فى عام ١٨٦٣م، مسألة تحول الصحافة إلى مشروع مُضارب هدفه الأول الربح:

> منذ تلك اللحظة وما بعدها، أصبحت الصحيفة مشروعًا استثماريّا يهدف للربح لأولئك الموهوبين فى تكوين ثروات، أو للناشرين ممن يرغبون فى جمع المال. . منذ تلك اللحظة وما بعدها، تحتفظ الصحف بمظهر مضمار لأصحاب الأفكار، بينما تتغير من كونها مثقِّفة ومعلمة للناس، إلى متزلفة لأصحاب الثروة وأصحاب الاشتراكات من البرجوازيين وما يناسب أمزجتهم؛ وهكذا تكون بعض الصحف مقيدة بالمكتتبين الحاليين فيها، وبعض الصحف الأخرى مقيدة بمن تريد كسب اشتراكاتهم، لكن كلاّ من المجموعتين تكون مقيدة دائما بأغلال المؤسسة المالية الحقيقية لمشروع الأعمال ـ الإعلانات (من چون ثيوبالد، **الميديا وصناعة التاريخ**، آشجيات، ٢٠٠٤م ص٢٣).

لاحظ الكاتب الأمريكى هنرى آدمز فى مطلع القرن العشرين أن الصحافة هى الوكيل المستأجر للنظام القائم على المال، وليست معدة لأى هدف آخر إلا سرد الأكاذيب فيما يخص مصالح ذلك النظام (روبرت ماكسنى، فى كتاب، **داخل المنشار الأزاز**، تحرير كريستينا بورچيسون ـ الصحفيون الرواد يكشفون أسطورة الصحافة الحرة، مجموعة كتب پروميثيوس، ٢٠٠٢م، ص٣٦٦).

طراز المؤسسات الذى تمجده الصحافة الآن على أنه يمثل اتجاها ليبراليّا، لم يكن يضلل أحدا فى أربعينيات القرن العشرين، عندما رفضه الراديكاليون «لأنه يغطى بحذر على آثام رجال المال وأقطاب الصناعة الذين يحكمون الأمة فى واقع الأمر» (إليزابيث فونز وولف، **بيع المشروع الحر**، مطبعة جامعة إلينوى، ١٩٩٤م ص٤٥).

لقد حدث التوازن عن طريق ميديا بديلة مزدهرة، تضم ٣٢٥ صحيفة ومجلة ينشرها أعضاء ومؤيدو الحزب الاشتراكى الأمريكى، لديها مليونا مشترك.

فى بداية القرن الماضى، أدى تحويل الصحافة إلى صناعة وما يتعلق به ذلك من ارتفاع تكاليف إنتاج الصحف، أدى إلى سيطرة الرأسماليين الأثرياء - مدعومين بالمعلنين - على وسائل الإعلام، وتهميش الصحافة الراديكالية - التى كانت مزدهرة - لعدم قدرتها على التنافس.

بمراجعة تاريخ الميديا البريطانية، كتب چيمس كيوران وچين سيتون عن: «تحول مستمر للملكية والسيطرة من الطبقة العاملة إلى رجال الأعمال الأثرياء، بينما أدى الاعتماد على الإعلان إلى استيعاب الصحافة الراديكالية المبكرة أو تقليصها، وأعاق مسيرتها التى كانت مزدهرة قبل الحرب العالمية الأولى. (**سلطة بدون مسئولية - الصحافة والإذاعة فى بريطانيا**، الطبعة الرابعة، روتلدچ ١٩٩١م ص٤٧). فى الواقع كان التأثير على الصحف المحلية الراديكالية التى فشلت فى الوفاء بمطالب المعلنين تأثيرا دراميّا: فإما أنها «أغلقت أبوابها، أو خضعت لضغوط الإعلان، فى سوق تتحرك لأعلى؛ أو ظلت متقوقعة على عدد محدود من القراء بخسائر ملحوظة؛ أو تقبلت مصدرا بديلا يرعاها» (المرجع السابق ص٤٣).

ليس مصادفة أنه بمجرد أن حققت المؤسسات هذا الكبت غير المسبوق لحرية التعبير، ظهرت فكرة الصحافة المحترفة؛ وهنا يشرح روبرت ماكسنى: «يفهم الناشرون الأذكياء أنهم محتاجون لجعل مهنتهم الصحفية تبدو محايدة وغير متحيزة - وهى فكرة غريبة تماما على صحافة الآباء المؤسسين - وإلا أصبحت أعمالهم أقل ربحًا» (**داخل المنشار الأزاز**، ص٣٦٧). بتعزيز مناهج التعليم فى مدارس تعليم الصحافة الرسمية - التى لم يكن لها وجود قبل عام ١٩٠٠م فى الولايات المتحدة - استطاع

المالكون الأثرياء الادعاء بأن المحررين المتدربين والمراسلين يتخذون قراراتهم التحريرية باستقلالية من منطلق خبرتهم المهنية، وليس من منطلق حاجات الملاك أو المعلنين. كنتيجة لذلك، يمكن أن يظهر المالكون احتكارهم للميديا على أنه خدمة حيادية للمجتمع. ولكن هذا الادعاء، كما كتب ماكسنى، «مزيف تمامًا».

فى حرفة الصحافة «المحايدة» ثلاثة تحيزات كبرى. الأول: التظاهر بتأكيد اختيار متوازن للقصص. قرر الصحفيون المحترفون أن التصرفات والآراء ذات المصدر الرسمى يجب أن تشكل أساس الأخبار المشروعة. كنتيجة، أصبحت مصادر الاتجاه السائد، سياسيّا، وفى مجال الأعمال، وعسكريّا، هى التى تسيطر، ولها مصالح متماثلة.

والفكرة تمضى على النحو التالى: الصحفيون محايدون، والسياسيون يتم انتخابهم عن طريق المقترعين لتوجيه شئون الاقتصاد والشئون الحربية، ولذلك فإن الصحافة المحايدة تنطوى على تقديم تقارير عن وجهات نظر مسئولى الحزب المنتخب والشخصيات العامة البارزة. فإذا ما كان اختيار الأحزاب السياسية قد تم بناء على مصالح الدولة - المؤسسات (بما فيها الميديا) التى تعمل من وراء الستار - بحيث إن أحزاب العمال والمحافظين، الديمقراطيين والجمهوريين، يقدمون سلسلة من السياسات التى تفيد هذه النخبة ذات النفوذ - فالأمر ليس مشكلة ميديا «محايدة»؛ وإذا ما أطلقت هذه الأحزاب نفسها على مناوراتها السياسية التى تخدم مصالحها اسم «تدخل إنسانى»، فالأمر أيضًا ليس مشكلة ميديا. فى يوليو عام ٢٠٠٤م، كتب نيك روبنسون المحرر السياسى لمحطة تليفزيون آى. تى. ڤى. فى جريدة النيوزويك عن حرب العراق عام ٢٠٠٣م:

> كنت أنا وزملائى فى ثنايا ذلك الصراع نجأر بالشكوى.. لقد تحولنا إلى ناطقين بلسان مستر بلير. لماذا؟ كان ذلك ما نحتاج الإجابة عليه. لماذا ندلى بالتقارير دون تفنيد؟ ودون أن نتساءل عن صحة تحذيره بأن صدام كان يمثل تهديدًا؟ ولماذا لم نقرأ ما قاله سكوت ريتر أو هانز بليكس؟ لكننى كنت أجيب على تساؤلاتى دائما بطريقة واحدة، وهى أن وظيفتى تحتم علىّ أن أكتب ما يقوم به من بيدهم السلطة، أو ما يفكرون فيه.. هذا كل ما يمكن

لشخص فى مثل عملى أن يفعله (تذكر آخر مرة صرخت فيها على هذا النحو؟ سألت طبيب اللف والدوران، التايمز، ١٦ يوليو، ٢٠٠٤م).

ثانيًا: يوافق الصحفيون على أن الصيد الثمين - حدث مثير، أو بيان رسمى، أو نشر تقرير - مطلوب لبناء قصة تغطيه.

هذا أيضًا يحابى مصالح المؤسسة [الحاكمة]، والتى تتفوق بمراحل على مجموعات المنشقين المهمشة فى إمكانية تقديم أمثال هذا الصيد الثمين.

وأخيراً تؤثر ضغوط التلويح بالثواب والعقاب (الجزرة والعصا) التى يستخدمها المعلنون، واتحاد مشروعات الأعمال، والأحزاب السياسية الرائدة، فى توجيه الصحفيين ناحية موضوعات بعينها، والانصراف عن موضوعات أخرى. تعتمد الصحف فى أكثر من ٧٥ فى المائة من عائداتها على إعلانات المؤسسات، ولذلك يقل احتمال تركيزها على الأثر المخرب لهذه المؤسسات على الصحة العامة، وعلى رخاء شعوب العالم الثالث وعلى البيئة.

فى عام ٢٠٠٠م عندما لم تتعرض سلسلة مقالات نشرتها التايم فى حملة لصالح البيئة، مولتها شركة فورد موتورز، لذكر أى رأى يحمّل السيارات مسئولية تلوث البيئة أجاب محرر التايم الدولى بصراحة: وهل سبق ونشرنا إعلانا لشركة من شركات الطيران بجانب حوادث وقوع الطائرات؟ (جانين چاكسون، وپيترهارت، الخوف والاستحسان ٢٠٠٠م كيف تشكل القوى الأخبار؟ موقع العدالة والدقة فى التقرير الصحفى (www.fair.org/ff 2000.htm>).

فى واقع الأمر، كما لاحظ ماكسنى، أن الصحافة الحرفية المتوازنة تتهرب باستمرار داخل بعض القيم التى تفضى إلى تحقيق الأهداف التجارية للمالكين [للصحافة] والمعلنين، بالإضافة إلى الأهداف السياسية للطبقة المالكة (**المنشار الأزاز** ص٣٦٩). هذا التهرب سوف يكون واضحًا للغاية فى الفصول التالية.

ملحوظة حول بنية هذا الكتاب

تم بناء هذا الكتاب «حراس السلطة» بأمل أن تعزز الفصول الأولى معنى الفصول التالية وأهميتها. وبفهم الفصول التالية حول مشكلة توافق مؤسسات الميديا،

والحلول الممكنة المتأصلة فى الشفقة [الإنسانية] وليس الشره والطمع، فإن ذلك سوف يساعدنا على أن نكتشف شواهد على وجود مشكلة فى الفصول الأولى، على سبيل المثال حول العراق.

عندما نصل إلى تلك النتيجة، نجد أنه علينا أن نبدأ بفصول عن العراق وأفغانستان، من منطلق أنها تتعلق بأكثر جرائم حكومتنا رعبًا ضد الإنسانية فى السنوات الحالية. وهى كذلك تمدنا بثروة هائلة من نفاذ البصيرة داخل عملية الدعاية لوسائل الإعلام.



الفصل الثانى

العراق
عقوبة التدمير الشامل



للأسف، إن عرض الأمر على هذا النحو مناف للحقيقة . . إنه صَدَّام، هو الذى قتل كل هؤلاء الأطفال، وأراق الدماء، وليست القرارات.

روجر آلتون محرر الأوبزرڤر، رسالة لعدسات الميديا، ١٥ مارس، ٢٠٠٢م.

بلير الكذوب ـ القضية الأخلاقية للحرب

كرد فعل على أكبر مسيرة احتجاج لم يسبق لها مثيل فى تاريخ بريطانيا، قال تونى بلير فى فبراير ٢٠٠٣م:

القضية الأخلاقية ضد الحرب لها إجابات أخلاقية: إنها قضية أخلاقية تتعلق بطرد صدام من السلطة . . حقّا هناك تبعات لشن الحرب. إذا ما أبعدنا «صدام» بالقوة، سوف يقع ضحايا من الشعب، والبعض منهم برىء، وعلينا أن نعترف بنتائج ما نقدم عليه من أفعال، حتى تلك غير المقصودة. لكن هناك كذلك عواقب لـ «وقف الحرب». لن تكون هناك مسيرة من أجل ضحايا صدام، ولا احتجاجات حول آلاف الأطفال الذين يموتون بلا داعٍ كل عام فى ظل حكمه، ولا غضب له مبرراته الأخلاقية بشأن غرفَ التعذيب التى إن ظل صدام فى السلطة فسوف تظل موجودة (ثمن قناعتى، الأوبزرڤر، ١٦ فبراير، ٢٠٠٣م).

بعد عامين من هذه الكلمات، أظهر مسح أجراه وزير التخطيط العراقى مع سكرتير عام الأمم المتحدة أن حوالى ربع أطفال [العراق] بين سن ستة شهور إلى خمسة أعوام يعانون من سوء التغذية (وزير التخطيط العراقى يبدأ أول مسح شامل عن ظروف المعيشة فى العراق، ١٢ مايو، ٢٠٠٥م) (<www.reliefweb.int>).

إن ما نشرته الميديا بصراحة هو حقيقة أن ذلك يمثل تدهوراً فعليّا فى الأرقام التى كانت مرعبة قبل الحرب. أظهر تقرير نشرته اليونيسيف فى أكتوبر ٢٠٠٤م: شهدت

العراق زيادة مهولة فى معدلات وفيات الأطفال دون سن الخامسة بشكل لم تشهده دولة أخرى فى العالم، وتوجد مؤشرات على أن الوفيات دون الخامسة مستمرة فى الارتفاع (تقدم بسيط فى معدل وفيات الأطفال، شبكة المعلومات الإقليمية المتكاملة، ١١ أكتوبر ٢٠٠٤م، <www.reliefweb.int>). ولتحرى الدقة، سجلت اليونيسيف تحسنًا فى وفيات أطفال العراق بين ١٩٩٩ و ٢٠٠٢م، حيث انخفض معدل حالات الوفاة من ١٣٠ لكل ألف من الأحياء فى ١٩٩٩م إلى ١٢٥ فى ٢٠٠٢ م. إلا أن هذا المعدل انعكس فى ظل الاحتلال الأمريكى ـ البريطانى. جاء تقرير اليونيسيف: منذ بدء الحرب فى العراق، ساءت أحوال تغذية الأطفال، قل معدل الأطفال الذين نجوا من أمراض نقص المناعة، وزادت حوادث الأمراض المعوية. (اليونيسيف، معلومات عن العراق فى رسالة إليكترونية لعدسات الميديا، ١٩ أكتوبر، ٢٠٠٤م).

فى ٣ ديسمبر ٢٠٠٤م، أدلى وزير الصحة العراقى ومسئولون آخرون عن الشئون الصحية بوجود نقص حاد فى الأدوية فى بلدة تحتلها دولتان من أكثر دول العالم ثراء. أدلت انتصار العبادى كبيرة صيادلة مستشفى اليرموك فى بغداد بما يلى:

> كان لدينا برنامج يوفر أدوية السرطان والأورام للمرضى حسب احتياجاتهم. اعتادت الوزارة على تقديم كميات معينة لنا كل عام، بحيث يمكن تقديم مساعدة منضبطة للمريض، لكن حاليًا توقف كل ذلك. لا يمكن تصور مدى التأثير الذى وقع على المرضى نتيجة لهذا النقص فى الأدوية (نقص الأدوية مستمر، شبكات المعلومات الإقليمية المتكاملة، ٣ سبتمبر ٢٠٠٤م <www.reliefweb.int>).

وفقًا لنتائج مسح أجرى فى عام ٢٠٠٤م، يوجد ما يقرب من ١,٣٠٠,٠٠٠ طفل عراقى أعمارهم ما بين ٨ إلى ١٦ عاما يقومون بالعمل فى مجالات مختلفة. أظهر المسح ساعات العمل الطويلة بحيث إن نسبة ٢٧ فى المائة من الأطفال تعمل لأكثر من ثمانى ساعات يوميًا. معظم من بدأ العمل فى هذه السن المبكرة من المناطق الريفية بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة هناك. (صورة عن عمالة الأطفال، ٩ مايو ٢٠٠٥م، <www.reliefweb.int>).

فى عام ٢٠٠٤م أيضا، كشفت دراسة عن أحوال المدارس قبل غزو العراق أن ثلث المدارس الابتدائية فى العراق تفتقر إلى أى إمدادات للمياه، وأن حوالى نصف المدارس ليس بها مرافق صحية. ومنذ مارس ٢٠٠٣م، تم تدمير ما يزيد عن ٧٠٠ مدرسة ابتدائية بقصفها بالقنابل ـ ثلثها موجود فى بغداد. احترقت أكثر من ٢٠٠ مدرسة، وما يزيد عن ٣٠٠٠ مدرسة أصبحت مراكز عسكرية لقوات الاحتلال (تعانى مدارس العراق من الإهمال والحرب، صندوق رعاية الأطفال التابع للأمم المتحدة، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م، <www.reliefweb.int>).

فى مايو ٢٠٠٥م أدلى طبيب عراقى ناشئ اسمه مايس نمر بمؤشرات عن حجم الدمار فى البلاد:

> إن ٩٩,٩٩ فى المائة من زملائى فى العمل قد أصابهم اليأس. إنهم يرغبون فى ترك البلاد عند أول فرصة تسنح لهم إلى أى دولة أخرى فى العالم. أن يقوموا بأى عمل فى تلك البلاد الأخرى أمر لم يفكروا فيه ولا يعنيهم ـ إنهم يريدون مغادرة البلاد وحسب. إنهم فى غاية اليأس بالفعل. (أخبار العاشرة فى بى. بى. سى، ١، ٧ يونيه، ٢٠٠٥م).

إن الطوفان الذى اجتاح العراق هو نتيجة للغزو غير المشروع للولايات المتحدة والمملكة المتحدة، نتيجة لعدم كفاءة التحالف فى التخطيط للاحتلال، ونتيجة الحد الأدنى فى الإنفاق على الرعاية الصحية والأنشطة الخاصة بالشعب. قال بوب هربرت فى النيويورك تايمز: أما عن إعادة إعمار العراق، فلننس هذا الأمر... من الصعب تصديق أن إدارة لم تهتم بإعادة بناء مدارس هنا فى أمريكا سوف تهرول من أجل القيام بدور فى مدارس الأطفال فى العراق. (خراب بلا مبرر، نيويورك تايمز، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٤م).

الاستئصال الفعال ـ الإبادة الأنجلوأمريكية فى العراق

كان كلام بلير فى ٢٠٠٣م عن الوفيات فى العراق ـ التى لم يكن لها داعٍ ـ إشارة إلى الموت الجماعى للأطفال الذى جاء ذكره فى تقرير الأمم المتحدة عن طريق مجموعات حقوق الإنسان، ووكالات المعونة. فى نشرة أخبار المساء، أوضح بلير أنه بسبب الطريقة

التى نفذ بها [صدام] هذه العقوبات الاقتصادية، فإنها كانت بالفعل سياسة وحشية للغاية ضد شعب العراق (نشرة المساء فى بى. بى. سى، ٢، ٦ فبراير ٢٠٠٣م).

تصريح بلير الكذوب حول هذه القضية بمثابة الصدمة، لكن مقارنة بأحاديثه السابقة حول عدد كبير من القضايا لم يكن الأمر كذلك. فقد قال، على سبيل المثال، عن أحوال المعاناة فى العراق بعد العقوبات الاقتصادية ما يلى:

> الحقيقة أنه من السهل تماما على صدام حسين أن يعطى شعبه المال الذى يحتاجه للطعام والدواء. ألا ترى، إن نظام العقوبات الاقتصادية يسمح له بالحصول على عائدات البترول لتوفير الغذاء والأدوية لشعبه، والسبب فى أنه لم يقم بذلك أنه كان يريد إقناع شعبه... أن السبب فى معاناته والصعوبات التى يواجهها هو الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. (كمال أحمد، تونى بلير يتحدث لمحرر الأوبزرڤر السياسى كمال أحمد، الأوبزرڤر، ١٤ أكتوبر ٢٠٠١م).

ورغم أن أحدًا لا يستطيع معرفة هذا الأمر من رد فعل الميديا على ادعاءات بلير، فإن هذه الادعاءات رفضها من وضع ونفذ العقوبات الاقتصادية على العراق. وبإلقاء نظرة خاطفة على الحقائق، نجد أن بلير مرة أخرى يستخدم إستراتيچيته المفضلة ـ قلب الحقائق بطريقة حماسية.

ولفهم آثار العقوبات الاقتصادية، نحتاج فى المقام الأول إدراك حجم الدمار الذى أصاب العراق بإلقاء ثمانية وثمانين ألف وخمسمائة (٨٨,٥٠٠) طن من قنابل جيوش الحلفاء أثناء حرب الخليج فى عام ١٩٩١م. أدلى إريك هوسكينز وهو طبيب كندى ومنسق فريق دراسة جامعة هارڤارد بتقرير مفاده أن قصف قوات التحالف دمر كل ما هو حيوى للوجود الإنسانى فى العراق: الكهرباء، والمياه، ونظم الصرف، والزراعة، والصناعة، والرعاية الصحية (مارك كيرتس، **غموض القوة ـ السياسة الخارجية البريطانية منذ ١٩٤٥م**؛ دار نشر زد، ١٩٩٥م، ص١٨٩).

لقد تم تدمير محطات توليد الكهرباء العملاقة فى العراق وعددها ١١ محطة، كذلك تم تدمير ١١٩ محطة فرعية ـ كان ٩٠ فى المائة من مرافق توليد الكهرباء معطلة خلال ساعات؛ وفى خلال أيام توقفت مرافق توليد الكهرباء تماما ـ تم تدمير ثمانية

سدود متعددة الأغراض بعد ضربها لعدة مرات ـ أدى ذلك إلى انهيار السيطرة على الفيضان، وكذلك مخزون الماء المحلى والصناعى، والطاقة الهيدرولوچية وطاقة الرى. تم تدمير أربع محطات ضخ مياه من عدد المحطات البالغ عددها سبع محطات فى العراق. تم إتلاف أربع عشرة شبكة تليفونات مركزية بحيث يتعذر إصلاحها، مصحوبًا بتدمير ٤٠٠,٠٠٠ خط تليفون من عدد الخطوط الكلية وهى ٩٠٠,٠٠٠. تم ضرب ثمانية وعشرين مستشفى مدنية و٥٢ مركزًا صحيًا محليًا.

أتلفت قنابل قوات التحالف ٦٧٦ مدرسة، من بينها ٣٨ دمرت تمامًا. لم تكن المواقع التاريخية محصنة ضد هذا القصف ـ فقد أتلف ٢٥ مسجدًا فى بغداد وحدها و٣٢١ مسجدًا فى جميع أنحاء البلاد. ظلت سبعة مصانع نسيج متوقفة عن العمل بسبب الأعطال التى لحقت بها، وخمسة مرافق من مرافق البناء، وأربعة مصانع لتجميع العربات وثلاثة مصانع للكلور. تم تدمير مصنع ضخم لإنتاج الحقن. تم قصف جميع مصانع الأسمنت، ومعها عدة وحدات لإنتاج الملابس ومستحضرات التجميل، وغير ذلك.

أدى الحظر نتيجة للعقوبات الاقتصادية إلى جعل إعادة بناء كل هذه البنية الأساسية مستحيلاً. فى مارس ١٩٩٩م، انتهى اجتماع لهيئة مستشارى حقوق الإنسان بمجلس الأمن إلى الإقرار بأن برنامج النفط مقابل الغذاء التابع للأمم المتحدة لا يفى بالحاجات الضرورية لشعب العراق، بصرف النظر عن التحسينات التى قد تكون قد أدخلت على تنفيذ برنامج الإعانات (شبكة صوت صارخ فى البرية، فى مارس ٢٠٠٢م، <www.viwuk.freeserve.co.uk>).

> بصرف النظر عما يمكن أن تكون هذه التحسينات قد أدت إليه ـ من حيث إجراءات التصديق، أو الأداء الأفضل للحكومة العراقية، أو مستويات التمويل ـ فإن ضخامة الاحتياجات الإنسانية لا يمكن الوفاء بها من خلال سياق [برنامج النفط مقابل الغذاء] ولم يكن هدف البرنامج كذلك الوفاء بكافة احتياجات شعب العراق ومن منطلق الوضع الحالى للبنية الأساسية، فإن العائد المطلوب لإصلاحها يتجاوز نطاق هذا البرنامج بكثير. (المرجع السابق).

وكان ما توصل إليه الاجتماع من نتائج هو أن: الوضع الإنسانى فى العراق سوف يظل وضعًا منذرًا بكارثة فى غياب إنعاش مستمر للاقتصاد العراقى، والذى لا يمكن تحقيقه فقط من خلال جهود إنسانية علاجية (المرجع السابق).

ومع ذلك، ظلت الحكومتان الأمريكية والبريطانية تدعيان أن هذه الوفيات الجماعية فى العراق لم تكن نتيجة للبنية الأساسية المحطمة، ونقص التمويل، والكساد الاقتصادى بسبب العقوبات الاقتصادية، وإنما هى نتيجة لنظام الحكم العراقى الذى سحب بقسوة مواد الغذاء والدواء من شعبه.

فى مارس ٢٠٠٠م توجهنا بالسؤال لمساعد السكرتير العام للأمم المتحدة دينيس هاليداى ـ وهو المسئول عن برنامج النفط مقابل الغذاء فى العراق ـ عما إذا كانت تأكيدات الحكومتين الأمريكية والبريطانية من أن صدام هو الذى أعاق استفادة الشعب العراقى من برنامج النفط مقابل الغذاء تحمل أى مسحة من الصدق. قمنا باقتباس خطاب كتبه بيتر هاين وزير الدولة إلى صحيفة نيوستاتسمان فى عام ٢٠٠٠م. كتب هاين: «لقد مرت ثلاث سنوات على برنامج النفط مقابل الغذاء ولم يلحظ الشعب العراقى أى فوائد عادت عليه منه». وكانت استجابة هاليداى هكذا:

> لا أساس لمثل هذه التأكيدات إطلاقًا. إن السكرتير العام أقر تكرارًا بعدم وجود شواهد على قيام حكومة بغداد بأى انحراف فى توزيع الغذاء على الشعب. لدينا ١٥٠ مراقبًا على أرض العراق. فعلى سبيل المثال، إذا رست سفن قمح ـ من جهة لا يعلم إلا الله مصدرها ـ على البصرة، فإنهم يتتبعون وصول الحبوب للمطاحن ويتتبعون وصول الدقيق إلى ٤٩٠٠٠ مفوض تستخدمهم حكومة العراق لهذا البرنامج، ثم يتتبعون وصول الدقيق إلى مستحقيه، بل ويعقدون مقابلات شخصية مع الذين تسلموا الدقيق ـ ولا يوجد دليل واحد على الانحراف فى توزيع المواد الغذائية أبدا على مدى العامين المنصرمين. والأمين العام ذكر فى تقاريره كل ذلك (مقابلة شخصية مع داڤيد إدواردز، مارس ٢٠٠٠م، <www.medialens.org>).

سألنا هاليداى عن موضوع الإمدادات الطبية، فى يناير ١٩٩٩م، قال چورچ روبرتسون الذى أصبح فيما بعد وزير الدفاع، لدى صدام حسين مخازن تضم أدوية قيمتها ٢٧٥ مليون دولار أمريكى وإمدادات طبية يرفض توزيعها، كرر هاليداى:

> نواجه مشاكل فى العقاقير الطبية والإمدادات، ويوجد تأخير فى وصولها إلى هناك. هناك أسباب وجيهة لذلك. أحدها أن الحكومة العراقية عادة تضع شروطًا هزيلة فى التعاقد؛ بحيث إنها تتعاقد على كميات كبيرة ـ خمسة ملايين دولار للإسپرين أو ما شابه ـ لشركة صغيرة لا يمكنها الوفاء بالعملية فتعيد عرضها على شركة أخرى وتضيع ثلاثة شهور أو أربعة أو ربما خمسة. هذا أول الأخطاء. والثانى أن لجنة العقوبات تفحص العقود وأصنافها وقد توافق على تسعة أصناف وتجمد العاشر، وهى تعلم تماما أنه بدون الصنف العاشر فإن الأصناف التسعة الأخرى لا فائدة لها. وتأتى الأصناف التسعة ـ يتم إرسال أمر التوريد بها وتصل ـ ويتم تخزينها فى المستودعات؛ وطبيعى أن تمتلئ المستودعات بمخزون لا يمكن فى الواقع أن يستخدم انتظارًا لمكونات أخرى جمدتها لجنة تنفيذ العقوبات (المرجع السابق).

وسألنا هاليداى عن رأيه فى الدافع من وراء تجميد صنف من الأصناف العشرة:

> لأن واشنطن ولندن، وإن يكن بقدر أقل، تلعبان لعبة متقنة من خلال لجنة العقوبات لاستمرار هذا البرنامج لسنوات ـ إنها خدعة متعمدة. أن تقول الحكومة البريطانية إن الكميات المطلوبة لتطعيم الأطفال سوف يتم استخدامها فى إنتاج أسلحة دمار شامل، فهذا هراء. وذلك هو السبب فى استخدامى لكلمة الإبادة الجماعية؛ لأن هذه سياسة متعمدة لتدمير شعب العراق. أخشى ألا يكون أمامى إلا هذه الرؤية فى هذه المرحلة المتأخرة (المرجع السابق).

تدعى الحكومة البريطانية أن «صدام» يستخدم أموال برنامج النفط مقابل الغذاء فى أى شيء آخر غير الغذاء. قرر پيتر هاين على سبيل المثال: يمكن توفير أكثر من ثمانية بلايين دولار أمريكى سنويًا للعراق للبرامج الإنسانية ـ ليس فقط من أجل الغذاء

والدواء ولكن كذلك من أجل مياه نقية، وكهرباء، ووسائل تعليمية. لن يتضور أحد أو يهلك (خطاب لنيو ستاتسمان، ١٣ مارس ٢٠٠٠م). أجاب هاليداى:

من بين العشرين بليون التى تم توفيرها من خلال برنامج «النفط مقابل الغذاء، أنفق ثلثها أى حوالى سبعة بلايين على «نفقات» الأمم المتحدة، والتعويضات للكويت وبنود أخرى من مطالبات المكافآت. وبذلك يتبقى مبلغ ١٣ بليون دولار للحكومة العراقية. إذا قسمت المبلغ على سكان العراق البالغ عددهم ٢٢ مليون نسمة، يصبح نصيب الفرد ١٩٠ دولاراً سنويًا على مدى ٣ سنوات ـ وذلك مبلغ غير ملائم بصورة مؤسفة (مقابلة شخصية مع داڤيد إدواردز، مارس ٢٠٠٠م).

استقال هاليداى، واستقال الذى تولى منصبه فيما بعد هانز ڤون سپونيك، احتجاجًا على ذلك، بعد العمل لمدة طويلة فى الأمم المتحدة ـ استقالات غير مسبوقة فى الأمم المتحدة فى مثل هذه المستويات الرئاسية، إلا أن الميديا تجاهلت هذا الأمر تماما. عندما رجعنا إلى تاريخ فبراير ٢٠٠٣م، لم يرد ذكر لهاليداى فى الأوبزرڤر، على سبيل المثال.

لقد استطاع بلير التصريح بهذا القول الفاضح عن الحرب الأخلاقية؛ لأن الصحفيين تجاهلوا لأمد طويل التقارير الواردة من جماعات مثل صندوق إنقاذ الطفولة فى المملكة المتحدة، الذى وصف العقوبات الاقتصادية ضد العراق بأنها حرب غير معلنة ضد أطفال العراق، (صوت صارخ فى البرية، المملكة المتحدة، مارس ٢٠٠٢م <www.viwuk.freeserve.co.uk>). وصفت الوكالة الكاثوليكية لتنمية ما وراء البحار CAFOD العقوبات الاقتصادية بأنها كارثة إنسانية، لا يمكن الدفاع عنها أخلاقيًا، ولا فعالية لها سياسيًا. إنها سياسة فاشلة، ولا بد من تغييرها (ميلان راى، خطة حرب العراق، ڤيرسو، ٢٠٠٢م، ص١٧٥). ذكرت جمعية مراقبة حقوق الإنسان: إن الفرض الدائم للعقوبات الاقتصادية الشاملة يقوض الحقوق الأساسية للأطفال وللسكان المدنيين على وجه العموم، وإنه يجب على مجلس [الأمن] أن يدرك أن العقوبات ساهمت بطريقة ضخمة فى دوام الظروف المهددة للحياة فى البلاد (أغسطس ٢٠٠٠م <www.viwuk.freeserve.co.uk>). وقع سبعون عضوًا من الكونجرس الأمريكى خطابًا للرئيس كلينتون، يناشدونه رفع الحظر وإنهاء ما أطلقوا عليه حفلة قتل

الأطفال التنكرية كسياسة (فيلادلفيا إنكويرر، أبريل ١٩٩٩م). كتب چون وكارل مويلر فى صحيفة فورين آفيرز فى مايو ـ يونيو ١٩٩٩م أن العقوبات لتدمير الشعب التى فرضها كلينتون وبلير، قتلت حتى ذلك الحين مدنيين فى العراق يفوق عددهم «ما سببته أسلحة الدمار الشامل على مر التاريخ الإنسانى» (إدوارد هيرمان ـ الدفاع الليبرالى عن الإمپريالية: پول ستار والمشهد الأمريكى فى سياسة كلينتون الخارجية، زد نت، ٢١ نوڤمبر ٢٠٠٠م).

تورط الميديا ـ مخطط پيلجر ـ البعث

بمصاحبة تورط الميديا فى تلك الجريمة، أمكن لحكومتى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لوم النظام العراقى على المعاناة. ذكر بين براون مسئول بى. بى. سى.:

> إنه هو [صدام] الذى ادعى أن قرارات الأمم المتحدة قد أوصلت مواطنيه إلى حد الموت جوعًا ـ كانت صوراً مثل تلك التى تصور [الطفل سيئ التغذية والأم اليائسة] أسلحة دعاية قوية فى يد صدام، عليه الآن أن يكُفّ عن ذلك (أخبار بى. بى. سى. ٢٠ يونيه، ١٩٩٦م).

وقال چون دراپر مراسل آى. إن. تى:

> الفكرة تتلخص فى استهداف عقوبات مهذبة لمساعدة عوام الشعب، بينما تمنع فى الوقت نفسه زعيم العراق من أن ينحو باللوم على الغرب بسبب المعاناة التى يكابدونها (أخبار آى. تى. ڤى فى نشرة أخبار الساعة ٢٢,٣٠ فى ٢٠ فبراير ٢٠٠١م).

وقال نيك كوهين مراسل الأوبزرڤر:

> أتلهف على معرفة كيف رتب ناعوم تشومسكى وچون پيلجر أن يعارضا الحرب التى سوف تنهى العقوبات التى ادعيا أنها قتلت مئات الآلاف من الأطفال، الذين كان يجب بدلاً من ذلك أن يحظوا بحياة صحية سعيدة فى دولة حبيسة (لا تغتظْ، سوف يصلون إلى هناك). (بلير مجرد طفل فى يد بوش، الأوبزرڤر، ١٠ مارس ٢٠٠٢م).

إن «الزعم»، كما رأينا، لم يكن من جانب تشومسكى أو پيلجر على الإطلاق.

أعلنت الأوبزرڤر أن: ديكتاتور العراق يقول إن أطفال بلده يموتون بالآلاف بسبب الحظر الذى فرضه الغرب. قال چون سوينى، فى فيلم وثائقى: إن الأرقام مزيفة (سوينى، كيف عرض صدام «مسرحية» جنازات أطفال مزيفين، الأوبزرڤر، ٢٣ يونيه ٢٠٠٢م). فى مقاله فى الأوبزرڤر، استشهد سوينى وحذف واحداً من المصادر الكثيرة للدلائل الموثوق فيها حول الموت الجماعى:

فى عام ١٩٩٩م، عرضت اليونيسيف بالاشتراك مع حكومة العراق عرضًا عن زيادة فى معدل وفيات الأطفال بلغت ٥٠٠,٠٠٠ فى التسعينيات. كان العرض مجالاً للتساؤلات. لقد أجرى بناء على بيانات من داخل نظام قام بتعذيب الأطفال دون أن يعاقب. إن كل من أجروا البحوث التى استعملتها اليونيسيف عدا باحث واحد، كانوا من موظفى وزارة الصحة، وذلك على حد قول لانست.

فى مقال نشر فى الإسپكتاتور، ذكر أن سوينى قد انحدر إلى أدنى مستوى حين أشار إلى ما أطلق عليه مخطط پيلجر ـ البعث حول العقوبات (سوينى: أول كوارث پيلجر، الإسپكتاتور، ٢٨ يونيه، ٢٠٠٣م).

سألنا هانز ڤون سپونيك، الذى أدار برنامج النفط مقابل الغذاء عن رأيه فى الجدل الذى دار مع سوينى فى مقال الأوبزرڤر. كان رد فعله كما يلى:

إن مقال سوينى هو نوع من الصحافة الذى يوصف بأنه مراوغ، يحتمل معنيين. لا شك أن حكومة العراق قد تلاعبت بالبيانات لتحقيق أهدافها، إن أى حكومة للأسف تتصرف على هذا النحو. لكن الصحف يجب ألا تفعل ذلك إن هذه المقالة تشويه صارم للحقيقة (رسالة إليكترونية لمحررى عدسات الميديا، ٢٤ يونيه، ٢٠٠٢م).

كتب ڤون سپونيك مباشرة إلى سوينى حول ادعاءاته عن أرقام اليونيسيف المزيفة:

عزيزى مستر سوينى، لطالما كنت أقدر الأوبزرڤر فى منزلة عالية، ولذلك فقد فوجئت للغاية بالمقال الذى كتبته عن العراق، والذى ذكرت فيه أن أرقام الوفيات هى دعاية عراقية. لسوء الحظ أنه من الصعوبة بمكان أن نحصل على

أى إحصائيات حول العراق، ومن ضمنها أرقام الوفيات. وعلى أى حال، فإنك قد أخطأت تماما فى تقييمك لتحليلات اليونيسيف. لا شك أن اليونيسيف تتعاون مع الحكومة، لكن المنهجية والنتائج خاصة باليونيسيف. لقد أخضع فريق كبير من المتخصصين فى اليونيسيف البيانات إلى مراجعة دقيقة تفاديًا لما لم تتفاده أنت، وأن ما تفعله يعد تسييسًا لمواد إحصائية. إن هذا أمر لا يدل على حرفة صحفية، علاوة على أنه محبط. لماذا لم تجر مشاورات مع اليونيسيف فى بغداد ونيويورك قبل أن تكتب مقالك؟ أنا على يقين أنك لا تريد أن تكون ألعوبة فى يد من يريدون اختلاق الأسباب لتشويه أى جهد يحاول رسم صورة للدمار الضخم الذى سببته العقوبات الاقتصادية للعراق، وذلك بالإضافة إلى ما عاناه المدنيون العراقيون من دمار من جراء ذلك. لكن ذلك ما قمت به أنت بالفعل، وجعلت الوضع الصعب أكثر صعوبة. تحياتى، هانز ڤون سپونيك (منقول من محررى عدسات الميديا، ٢٥ يونيه ٢٠٠٢م).

وعلى حد علمنا أن سوينى أخفق فى أن يجد ردًا على ذلك.

دفن آثار العقوبات الاقتصادية

لا أحد ينكر أن «صدام» كان طاغية قاسيًا وقمعيًا، لكن العراق لم تكن دائما هذه الدولة المنهارة، كما حدث لها فى السنوات الأخيرة. وفقًا لتقرير وحدة الاستخبارات الاقتصادية فى البلاد عن العراق قبل فرض العقوبات عليها، كانت العراق دولة تتمتع بالرخاء، وكانت بين أكثر الدول سعة وكرمًا فى العالم العربى (العراق: تقرير البلاد ١٩٩٥ - ١٩٩٦م). فى ديسمبر ١٩٩٩م ذكر تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر: منذ عقد مضى فقط، فاخرت العراق بأن لديها أحدث بنية أساسية، وأعلى مستوى معيشة، فى الشرق الأوسط، ونظامًا متقدمًا للرعاية الصحية، ومعالجة مياه متطورة، وإمكانيات كبيرة لضخ المياه (التقرير الدولى، العراق: عقد من الخطر، ديسمبر ١٩٩٩م). فى عام ١٩٩٦م، أصدر مركز الحقوق الاقتصادية والاجتماعية تقريرًا عن الوضع قبل حرب الخليج والعراق:

كان أكثر من ٩٠ بالمائة من السكان يحصلون على الرعاية الصحية الأساسية، بما فى ذلك التشخيص المعملى والتحصين ضد أمراض الأطفال، وأثناء سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، شيدت الشركات البريطانية واليابانية عددًا لا يحصى من المستشفيات الحديثة الضخمة فى جميع أنحاء العراق، بها تكنولوچيات تشخيص وعلاج وإجراء عمليات متطورة للغاية. والخدمات من المرحلة الثانية والثالثة ـ بما فيها العناية الجراحية والفحص المعملى ـ متاحة لمعظم شعب العراق وبتكلفة رمزية. وركزت مدارس الطب والتمريض فى العراق على النساء، واجتذبت طلبة من جميع أنحاء الشرق الأوسط. تدرب أغلبية أطباء العراق فى أوروبا والولايات المتحدة، وحصل ربعهم على درجات زمالة وتخصص (**معاناة خطر الأمم المتحدة**، مايو ١٩٩٦م <www.cesr.org>).

أصبح الوضع فى العراق فى ظل العقوبات الاقتصادية مختلفًا بدرجة كبيرة. استنتج ريتشارد جارفيلد، أستاذ علم الأوبئة المعروف فى جامعة نيويورك، أن معظم الزيادات فى عدد وفيات الأطفال بين أغسطس ١٩٩٠م ومارس ١٩٩٨م كانت فى المقام الأول مرتبطة بالعقوبات الاقتصادية (وفيات الأطفال وانتشار أمراض الأطفال بين العراقيين منذ ١٩٩٠ إلى ١٩٩٨م: تقييم آثار حرب الخليج والعقوبات الاقتصادية مارس ١٩٩٩م <www.nd.edu>). ذكر جارفليد أن معدلات الوفيات التى تضاعفت ثلاث مرات منذ ١٩٩٠م تعد أمرا فريدًا، حيث إنه لا توجد معلومات عن وجود ارتفاع فى وفيات الأطفال على مدى خمس سنوات فى العالم الحديث (چون ميولر وكارل ميولر، **منهجية الدمار الشامل: تقييم التهديدات فى النظام العالمى الجديد**، دورية الدراسات الإستراتيچية، المجلد ٢٣، رقم ١، ٢٠٠٠م، صفحات ١٦٣ - ١٨٧).

لقد تخلص تمامًا نظام الميديا من هذه الحقائق، إذ أنه يفهم أن شيطنة صدام حسين ونظام الحكم العراقى مسألة حيوية لتبرير شن الحرب. وبالمثل استبعدت الميديا أى إشارة ولو طفيفة إلى مسئولية لندن وواشنطن عن موت أكثر من مليون شخص فى العراق ـ وهم الأفراد نفسهم الذين ادعى كل من بلير وبوش أنهما يسعيان لتحريرهم.

من بين ١٢,٣٦٦٦ مقالة نشرتها الجارديان والأوبزرڤر الواسعتا الانتشار، لم يرد ذكر لهاليداى فى حديثه عن العراق إلا فى مقالتين فقط، وتم ذكر ڤون سپونيك خمس مرات وحسب، وذلك فى عام ٢٠٠٣م. وفى مقالات عام ٢٠٠٤م البالغ عددها ٨٨٢٧ مقالة ذكر هاليداى مرتين فى شأن العراق وسپونيك خمس مرات.

وفى الاتجاه نفسه، أعلنت القناة الرابعة للأخبار: لطالما انتقدت العقوبات بمرارة بزعم أن الأموال صرفت لصدام وليس للشعب العراقى. والآن يثور تساؤل حول ما إذا كانت بعض الأرباح قد حولت أيضًا للخارج (أخبار الظهيرة قناة ٤، ٢٢ أپريل، ٢٠٠٤م). لكن لم يُسمح للنقد المرير للإبادة التى سببها الحظر بالظهور.

ولنقارن ذلك بمقالة الديلى تلجراف: قال نقاد البرنامج إنه أصبح طريقة يكافئ بها صدام أصدقاءه فى الغرب ويتلاعب بالأمم المتحدة (فيليپ ديلڤيز بروتون، الساسة الروس والفرنسيون تم رشوتهم للتخفيف من العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة، الدايلى تلجراف، ٢٢ أپريل، ٢٠٠٤م).

غطت بى. بى. سى. القصة نفسها وقامت بالحذف نفسه: اتهمت تقارير الميديا الحالية أفرادًا وشركات من أكثر من ٤٠ دولة، من ضمنهم كبار المسئولين فى الأمم المتحدة، لتورطهم فى فساد وتلقى رشاوى فيما يتعلق بمبيعات النفط. والتقرير مقتبس من ڤون سپونيك:

> يقول هانز ڤون سپونيك منسق الشئون الإنسانية السابق فى الأمم المتحدة بشأن العراق: إن الادعاءات تحتاج إلى إيضاح وتفسير، ولكنه أنكر أن الهيئة الدولية قد تورطت فى الفساد: إن أكبر بنود الصفقات، كانت ابتزاز أموال، وسوء استغلال، واستردادات من بعض المخصصات تم ارتكابها على مسمع من مسئولى الأمم المتحدة، كان ذلك ما ذكره لبرنامج اليوم (الأمم المتحدة تأمر بإجراء تحقيق حول الفساد فى العراق، أخبار بى. بى. سى. ٢٢ أپريل ٢٠٠٤م)
> (<http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/3648409).

على أى حال، لم يأت ذكر لشجب ڤون سپونيك الشديد لدور العقوبات الاقتصادية فى القتل الجماعى لشعب العراق. فعلى سبيل المثال، فى ديسمبر ١٩٩٩م أخبر ڤون سپونيك المستمع البريطانى بما يلى:

أصدقائى، إن بلدكم تحاول أن تحبس نمرًا متوحشًا. لكنكم تقتلون الطائر النادر الجميل. فى خلال عشرين سنة سوف تقوم جامعاتكم المدققة باستخدام العقوبات على العراق كمثال لما لا يجب اتباعه فى ممارسة السياسة الخارجية.

(http://no-nukes.org/voices/archive4/vfp48.html)

لَوَت الديلى تلجراف الحقيقة فى مقالة أخرى:

ليس هناك حجج أكثر مرارة ضد الاستعداد للحرب من زعم نشطاء اليسار، والتقدميين العرب والمتطرفين المسلمين، أن العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة قامت بقتل أطفال العراق عن طريق حرمانهم من الطعام والدواء.

إنهم يلومون بريطانيا والولايات المتحدة اللتين أبقتا على العقوبات فى وجه المعارضة المتزايدة من فرنسا وروسيا.

لقد رتب نظام صدام لمنتقدى الحظر زيارات روتينية للمستشفيات وللمنازل ليقفوا على مدى المعاناة التى تسببت فيها. (داڤيد رينى، محاسيب صدام ازدادوا ثراء من أموال منع الجوع. الديلى تلجراف، ٢٢ أبريل، ٢٠٠٤م).

يُفترض أن نشطاء الجناح اليسارى يضمون كبار ديبلوماسيى الأمم المتحدة الذين وضعوا ونفذوا أسس برنامج النفط مقابل الغذاء، وكذلك باحثى وكالة المعونة التابعة للأمم المتحدة.

كتب محررو التايمز: «كان من الواضح دائما أن المشروع لم يعمل على الوجه الذى كان معدا له، لقد تضور أطفال العراق جوعًا، وخلت المستشفيات من العقاقير، بينما صدام يؤثث المزيد من القصور». وُصفَ البرنامج بأنه فشل فى دعم شعب العراق. عن عدد العراقيين الذى لا يحصى ممن لاَقوا حتفهم وعانوا الفقر والفشل والحرمان، كتبت الصحيفة برقة ولطف: «تظل الأمم المتحدة متهمة بسوء الإدارة، إذا لم يكن التورط الكامل، فى فضيحة الضحايا من المدنيين الأبرياء، الذين مات البعض منهم بسبب نقص الدواء». (الافتتاحية، الغذاء مقابل الفضيحة، التايمز ٢٢ أبريل، ٢٠٠٤م).

في الفيلم الوثائقي الذي أذاعته بي . بي . سي . عن چون سويني . **أم كل المساخر**، قال برهام صلاح ـ الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء الاتحاد الكردستاني، ثم فيما بعد نائب رئيس الوزراء العراقي :

> إن برنامج النفط مقابل الغذاء برنامج جيد، لا بد من استمراره . إنه أفضل شيء حدث في العراق منذ إنشاء دولة العراق . وذلك ليس فقط بالنسبة للمناطق الكردية، بل كذلك لباقي أنحاء العراق؛ لأننا لم يسبق وتلقينا مثل هذا البرنامج الجيد ـ بالنسبة لكل العراقيين، وليس فقط للأكراد (أم كل المساخر، مراسل بي . بي . سي . ٢٣ يونيه، ٢٠٠٢م) .

بدعم من هذه الموجة من الدعاية، استطاع الصحفيون أن يمروا مر الكرام على مسئولية الغرب عن تلك الجرائم الفادحة ضد الإنسانية . في شريط وثائقي في بي . بي . سي . في نوڤمبر ٢٠٠٢م **صدام : تحذير من التاريخ** (بي . بي . سي، ١، ٣ نوڤمبر ٢٠٠٢م)، قصر چون سمپسون تعليقاته على مسئولية الغرب عن الإبادة الجماعية في العراق كنتيجة للعقوبات في ١٦ كلمة في عبارة واحدة . لأسباب لا تعرفها إلا الپانوراما، استخدم سمپسون الفعل الماضي : كانت العقوبات بالفعل عقابًا قاسيًا؛ لأنها تسببت في الأساس في إيذاء الشعب البسيط لتلك الدولة . هذا كل ما يمكن أن يقال في البانوراما عن قتل مليون مدني على يد حكومتنا . ما الذي يمكن أن تضيفه بي . بي . سي . إذا ما قتلت حكومتنا مليوني فرد أو ثلاثة ملايين، أو خمسة ملايين؟ هل ستغطي الملايين الإضافية باثنتي عشرة كلمة أخرى؟ أو بعبارة ثانية أو ثالثة؟ هل هناك أسوأ وحشية مما حدث كي تتحول بي . بي . سي من إلقاء الضوء على أعداء رسميين مثل صدام إلى التركيز على حكوماتنا نحن؟، ميّع سمپسون الست عشرة كلمة بأن أضاف عن العقوبات الاقتصادية : يعلم صدام تماما أنهم [الشعب العراقي] كانوا سيعانون أشد مما يعانونه الآن!

لاحظ تيموثي جارتون آش في مقال نُشر في الجارديان : «أمريكا لم تكن أبدًا الشيطان الأعظم . كانت أحيانًا جاتسبي العظيم : كانوا أناسًا مهملين ـ توم وديزي ـ حطموا أشياء ومخلوقات ثم تخلوا مرة أخرى عن عملهم وعادوا إلى نقودهم ولا مبالاتهم . . . » (**أمريكا في امتحان صارم**، الجارديان، ١٧ أپريل، ٢٠٠٣م) .

توم وديزى ـ دونالد رامسفيلد وجيش الولايات المتحدة ـ حطموا بالفعل أشياء ومخلوقات فى العراق، مخلوقات بشرية وإن كانت من ذوى البشرة البنية. ما الذى يمكن وصفه باللامبالاة أكثر من إنهاء العقوبات أخيراً بعد اثنى عشر عاماً حصدت حياة مليون من الأبرياء، وحطمت للمرة الثانية ركام دولة لا تستطيع الدفاع عن نفسها مخلفة وراءها ١٠٠,٠٠٠ ضحية؟

يلخص تشومسكى حقيقة الأداء الصحفى بدقة شديدة:

> عندما تحاول أن تدفع أحدا للحديث حول هذه المسألة، فلن يستطيع فهم مغزى سؤالك. إنهم لا يفهمون أننا يجب أن نطبق على أنفسنا المقاييس نفسها التى نطبقها على الآخرين. إن ذلك أمر مبهم. ليس هناك مبدأ أخلاقى أكثر أولوية. كل ما عليك أن تقرأ فيلسوف چورچ بوش المفضل [المسيح]. توجد تعريفات فى الأناجيل للمرائين، المرائى هو شخص يرفض أن يطبق على نفسه المقاييس التى يطبقها على الآخرين. على هذا الأساس، فإن التعليق ومناقشة ما يسمى الحرب على الإرهاب إنما هو رياء خالص، فى الواقع دون استثناء. هل يمكن لأحد أن يفهم ذلك؟ لا، لن يمكنهم فهم ذلك. (**القوة والإرهاب**، دار نشر السبع قصص، ٢٠٠٣م، ص٢٩).

محرر الأوبزرڤر روچر آلتون والمحارب القديم ذو الثلاثة وثمانين عامًا

فى ١٥ مارس ٢٠٠٢م، بعث إلينا أحد قراء عدسات الميديا رسالة إلكترونية كان قد أرسلها إلى روچر آلتون، محرر الأوبزرڤر. أخبرنا أنه من المحاربين القدماء فى الحرب العالمية الثانية، يبلغ من العمر ٨٣ عامًا (وطلب منا أن يظل مجهول الاسم)، لقد خدم لمدة سبع سنوات كضابط فى الفرقة ١٤ من سلاح الدبابات، ويعد فى نظرنا شخصية مرموقة، عقلانى وعاطفى فى الوقت نفسه.

أخبرنا أنه كتب إلى آلتون وإلى نيك كوهين كاتب عمود الأوبزرڤر، لأنه يعرف تمامًا أهوال الحرب، بمعنى أهوالها على المدنيين الأبرياء وعلى الجنود. وشعرنا أن خطابه لآلتون يستحق أن نورده كاملا:

قرأت مندهشًا الدفاع الذى أرسلته إلى عدسات الميديا حول مقالتكم الأخيرة وتعليقاتكم عن العراق، إذ تعودت أن أنظر إليكم سابقًا كمصدر للتنوير أكثر من معظم المعلقين. بدا الأمر بالنسبة لى (رجل عجوز عمره ٨٣ عامًا وقارئ لعدة عقود للأوبزرفر) محاولة من جانب كثيرين من الصحفيين والمحللين والمعلقين أن يتجهوا نحو ما يعتقدون أنه الأفيد لهم، وأنه لن يبعدهم عن «المؤسسة»، بتقبلهم مجادلات لبعض هؤلاء من أمثال هاين، وبرادشو، وسترو، الذين تخضع نظرتهم عادة لتأكيد النفوذ السياسى الحالى. ينحاز هذا النفوذ دائما إلى مظلة سيطرة حكومة الولايات المتحدة الحالية (وليس الشعب الأمريكى) لتعزيز طموحاتها ـ وليس طموحات حزب العمل (الذى ارتبطت به معظم السنوات السبعين التى عشتها)، ولكنها طموحات مرتبطة بمن يفردون دورًا جديدًا له، حالما حققوا مراكز اكتسبوها على أكتاف أجيال من عمال الحزب.

أقول بكل لطف، أرجوكم افحصوا المعلومات والحقائق بعمق، وحاولوا مقاومة إغراء تقمص مجادلات الآخرين أو استخدامها. . . راجيًا ألا يبدو ذلك كما لو كان شبيهًا بكلام جَدٍّ مُسن كما هو حالى، لكنكم لا بد ستشعرون بالارتياح إذا ما حاولتم «أن تستخرجوا من الأعشاب السامة العصارة الشافية». سأظل أتطلع إلى جهدكم التالى.

المخلص

(تم حذف الاسم)

كانت استجابة روجر آلتون محرر الأوبزرڤر بالبريد الإليكترونى:

ليست تلك هى الحقيقة. . صدام هو من قتل كل الأطفال الأبرياء، وليست العقوبات الاقتصادية. آسف.

تتحدث قسوة إجابة آلتون عن نفسها.

ففى أپريل ٢٠٠٤م، كتبنا لمراسل الإندپندنت آندرو بنكومب ما يلى:

العزيز آندرو

ربما أتساءل حول مقالكم اليوم فى الإندپندنت. لقد كتبت:

> إن برنامج النفط مقابل الغذاء، المثير للجدل، تم وضعه فى ١٩٩٦م بهدف مساعدة العراقيين الذين عانوا من عقوبات الأمم المتحدة التى فرضت بعد حرب الخليج ١٩٩٠ - ١٩٩١م. يتيح المشروع للعراق بيع كميات محدودة من النفط ـ من المفترض أنها تتم فى ظل رقابة مشددة من الأمم المتحدة ـ لتمويل شراء الطعام والسلع الإنسانية (ربما رشا صدام كبار المسئولين من برنامج النفط مقابل الغذاء، الإندپندنت، ٢٢ أپريل ٢٠٠٤م). لماذا ذكرت أن البرنامج «محل جدال»، وتجاهلت ذكر كل من دينيس هاليداى أو هانز ڤون سپونيك المسئولين السابقين عن المشروع؟ واللذين استقالا احتجاجًا على الآثار المخربة لقرار الأمم المتحدة بفرض العقوبات الاقتصادية.

كما تعرف فإن دينيس هاليداى استقال فى عام ١٩٩٨م، واصفًا نظام العقوبات بأنه غير قانونى وغير أخلاقى. لقد قال إننا نقوم بعملية تدمير لمجتمع بأكمله. وقال هاليداى أيضًا إن العقوبات كمفهوم قد أفلست لأنها تدمر أفرادا أبرياء وربما قوّت قيادة البلد. وقال كذلك: سوف أستخدم مصطلح الإبادة الجماعية لتعريف استخدام العقوبات ضد العراق.

استقال هانز ڤون سپونيك من المنصب نفسه فى عام ٢٠٠٠م، قائلا إن العقوبات خلقت مأساة إنسانية حقيقية، وتساءل إلى متى سيظل المدنيون ـ الذين هم أبرياء من كل ما يحدث ـ معرضين إلى مثل هذا العقاب على أشياء لم يرتكبوها أبدًا؟!

أحصى تقرير اليونيسيف لعام ١٩٩٩م أن أكثر من نصف مليون طفل ماتوا كنتيجة مباشرة للعقوبات.

لماذا لا تعتبر أن أيّا من تلك المعلومات جديرة بأن تظهر فى تقريرك اليوم؟

أتطلع إلى أن أسمع ردك، إذا تكرمت.

تحياتى

داڤيد كروموبل (٢٢ أپريل، ٢٠٠٤م)

تلقينا فى اليوم نفسه هذا الرد:

داڤيد شكرًا على خطابك. جميل أن أسمع منك شيئًا مرة أخرى، وأثق فى كل ما تذكره.

إن إجابتى المختصرة على سؤالك، أنه لو كان قد أتيح لى مزيد من المساحة والوقت لكنت ذكرت، ليس فقط هاليداى وسپونيك كما اقترحت، ولكن كل فرد ارتبط بالمجادلات المشتعلة حول العقوبات. كان علىّ أن أذكر مادلين أولبرايت (إنها تستحق ذلك)، وريتر، وغيرهما، ولكنت قد أفردت مساحات كبيرة لجيوف سيمونز وعمله المُلهم: استهداف العراق: العقوبات والقصف بالقنابل فى سياسة الولايات المتحدة.

حيث كان علىَّ كتابه ٤٦٠ كلمة - فى ٢٠ دقيقة أعطيتها للمقالة التى كنت أكتبها صباح أمس - وهى لمحة مختصرة عن التحقيقات بشأن أعمال الفساد المزعومة فى برنامج الأمم المتحدة عن الغذاء، والتى تورط فيها ثلاثة من كبار المسئولين. فى نظرى، وقد تكون نظرتى مُضَلّلَة، أعتقد أن معظم الأشخاص على علم بالجدال الدائر حول العقوبات، وحيث إن المساحة المخصصة لى كانت محدودة، فقد كان علىَّ الاختيار بين المعلومات التى أستخدمها.

لا أعتقد أن كل خبر صغير يحتاج إلى أن يكون تاريخا كاملا لموضوع. ولو كنت قد شعرت بأن موضوع العقوبات ووجهة نظر هاليداى حولها لم يتم تغطيتها تغطية كافية، فإننى لم أكن أتردد على الفور فى تقديم تغطية لها. وأعتقد أن هذه القصة سوف أعود إليها فيما بعد.

إذا كنت تريد السؤال حول سبب تخصيص ٤٦٠ كلمة فقط لى وليس أكثر من ذلك بشأن موضوع مثل ذلك، بينما تفرد الصحيفة مساحات كبيرة لتغطية موضوع عدم ولاء داڤيد بيكهام [لاعب كرة القدم]، فعليك أن تتوجه بسؤالك لشخص آخر أكبر مركزا منى فى الصحيفة.

هل يساعدك ذلك؟ هل دعمت دعايتك حول نموذج أداء فرد يعمل فى ميديا مملوكة لمؤسسة ما؟ لقد حاولت بالفعل شرح بعض من الضغوط الأساسية والقيود لموضوع إطالة المقال والوقت المحدد لإنجازه - وهى ضغوط واقعية

على الصحفيين التي يبدو أنكم عادة ما تتجاهلونها في تحذيرات الميديا. أدرك أنك ستقوم باختيار بعض أجزاء من ردي، لكنني آمل أن تضع ملحوظات حول كل ما تريد اقتباسه والسياق الذي ورد فيه.

أرجوك معاودة الاتصال بي إذا كنت محتاجا لأشياء أخرى. أتطلع لقراءة مؤلفك حول العراق.

تحياتي

آندرو بنكومب

نحن مدينون بالفضل إلى آندرو بنكومب على إجابته. على أي حال، فإن الزعم بنقص المساحة وعدم توفر الوقت يستحق الملاحظة. ولنلاحظ أنه في معظم المساحات المتاحة في الإندپندنت، والجارديان، والتايمز، والتلجراف، وأخبار القناة الرابعة، وعلى موقعها على الإنترنت، وأخبار بي. بي. سي. وموقعها على الإنترنت، وغير ذلك، لا يوجد على ما يبدو مساحات كافية لذكر ـ وذلك وفقا لقول كبار مسئولي الأمم المتحدة ـ تورط بريطانيا في الإبادة الجماعية. هل حقا علينا أن نعتقد أن هذا الصمت نتيجة لضيق المساحة؟ في الواقع فإنه لا وجود لنقص في المساحات في الميديا ـ إنه تجاهل منهجي، وليس نقصًا.

حقّا إن بعض القراء يهتمون «بالجدال» حول نظام العقوبات الذي فرضته الأمم المتحدة، ولا يوجد كثيرون ممن يهتمون بأن ديپلوماسيي الأمم المتحدة اتهموا الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بإبادة جماعية فعلية في العراق، لسبب بسيط، أن ذلك الأمر لم يذكر إلا نادرا. حتى إذا لم يكن القراء مهتمين، فإن الأهمية غير العادية للموضوع تستحق دون شك التركيز. على كل حال، لم تمل الميديا من تذكيرنا بإطلاق الغاز السام على المدنيين في حلبجة على يد صدام ـ وهي جريمة أصغر بكثير بالمقارنة بما تفعله حكومتا إنجلترا والولايات المتحدة.

ثلاث رسائل إلكترونية من نيك كوهين جديرة بالملاحظة

في عام ٢٠٠٢م، تبادلنا كثيرًا من الرسائل الإلكترونية مع نيك كوهين محرر

الأوبزرفر. لا تسمح المساحة هنا بعرض كل الرسائل بالتفصيل، إلا أن أداء كوهين كان بمثابة بصيرة جديدة لنا.

نشرنا فى ١٣ مايو ٢٠٠٢م تحذير الميديا «نيك كوهين من الأوبزرفر حول العراق، وتشومسكى وبيلجـــر» <www.medialens.org/alerts/02/020313_de_Guardian Cohen.html> . لاحظنا تعليقات نيك كوهين فى ١٠ مارس ٢٠٠٢م:

> أتطلع لرؤية كيف استطاع ناعوم تشومسكى وجون بيلجر معارضة حرب سوف تنهى العقوبات التى يزعمان أنها قتلت مئات الآلاف من الأطفال الذين كان يجب أن يكونوا سعداء وأصحاء فى دولة حبيسة (لا تغتظ، سوف يصلون إلى هناك). (بلير ليس إلا ألعوبة فى يد بوش، الأوبزرفر، ١٠ مارس، ٢٠٠٢م).

تلقت عدسات الميديا هذه الإجابة من نيك كوهين فى ١٣ مارس ٢٠٠٢م:

> المشكلة فى قضية أن العقوبات هى التى سببت التضور جوعا هى أن :
>
> ١ ـ لم تستخدم هذه النظرية إبان العقوبات التى فرضت على جنوب إفريقيا.
>
> ٢ ـ صدام طاغية قتل عشرات الآلاف من شعبه.
>
> ٣ ـ تم تخفيف نظام العقوبات جزئيا فى منتصف التسعينيات.
>
> ٤ ـ والأهم من ذلك أن «صدام» أقحم منهجه فى رأسمالية الصدمات لإثراء نفسه وأصدقائه المقربين. كما حدث فى روسيا عندما تم الجمع بين الخصخصة وعصابات استغلال النفوذ.
>
> يمكنك ـ إن أردت ـ حذف كل ذلك، وأن تتبع حسابات الأمم المتحدة البسيطة. لا شك أن من شغلوا نفس منصبك من قبل قد توصلوا إلى جدل مقنع لدعم نظرية أن مجاعة أوكرانيا نشأت بسبب مقاطعة الغرب للبلشفية أكثر من العم العزيز العجوز جو (جوزيف ستالين).

أجبنا بمجموعة من الشواهد التى نعرضها فى هذا الفصل فى ١٥ مارس (انظر <www.medialens.org/alerts/02/020315_de_Guardian Cohen-replyhtm>).

وأجاب كوهين فى اليوم نفسه :

أعزائى المستسلمين للعبودية

كانت درجة احترامى لكم ستزيد إذا ما أظهرتم أقل قدر من الإدراك لكون الطاغية يتحمل بعض المسئولية عن الطغيان . أقدر صعوبة ذلك عليكم ؛ لأنه ينطوى على مصطلحات ذات مبادئ معقدة ومخيفة أوروبية المنشأ مثل العدالة والعالمية [عالمية القيم الإنسانية]، وأشارككم آلامكم بالفعل . ولكن من أجلكم لا من أجلى، أود أن أعرف بالتقريب عدد الوفيات التى سببها صدام؟ إذا اعترفتم أن العدد يتكون من رقمين أو أكثر، فماذا نفعل حيال ذلك؟ يحيا چو ستالين .

أجبنا عليه مرة أخرى فى ٢٠ مارس (ارجع إلى

(www.medialens.org/alerts/02/020320_de Observer_Cohen repley2html.>

وأخيراً تلقينا هذه الإجابة من كوهين فى ٢٣ مارس ٢٠٠٢م :

الأعزاء عدسات الميديا

آسف لأخذ المبادرة . ما أود إيضاحه من جانبى، معترفا بإثم استخدام المزاح، أنه يوجد ثلاثة حلول ممكنة لأخذ العراق :

١ ـ حرب تدمر «صدام» إما عن طريق غزو مباشر أو ثورة يمولها الغرب . (يقوم بوش حاليا فى التفكير فى القرار الذى يجب عليه اتخاذه بين الخيارين، وبلير سوف يفعل ما يخبره به بوش) وبعد النصر، سوف يسقط الحظر .

٢ ـ عدم شن حرب وعدم فرض حظر، ويترك صدام بمفرده، وأخمن من رسالتكم الإليكترونية أن هذا هو موقفكم .

٣ ـ عدم شن حرب، لكن الحظر ـ خاصة الخاص بحظر السلاح ـ يتم فرضه . وتقوم القوى الأجنبية بتقديم الملجأ الآمن للأكراد، وسوف يؤيد الرأى العام العالمى قيام دولة كردية مستقلة . وعلى القوات الجوية الأجنبية كذلك أن تقدم غطاء جويا لحماية الأغلبية الشيعية الموجودة فى الجنوب .

الحلان الأول والثالث قريبان من بعضهما البعض عن الحل الثانى، الذى أدى بى إلى أن أتطرق إلى الصعوبة التى سيواجهها أشخاص مثلكم فى ضمنا إلى نضالكم القادم.

يمكن لقرائنا الاطلاع على ردنا فى ٢٦ مارس على هذا الموقع www.medialens.org/alerts/02/020326de_Observer_Cohn reply_3.html.

تعد رسائل كوهين الإلكترونية نقطة تحول بالنسبة لنا. بعد أقل من تسعة أشهر قضيناها فى مشروع عدسات الميديا، بدأنا ندرك إلى أى حد يعجز حتى كبار الصحافيين فى الدفاع عن حججهم ضد الاعتراضات المنطقية. وهذا ما كتبناه إلى كوهين فى ١٥ مارس، ٢٠٠٢م:

نبعث إليك باعتراضات مخلصة ومفصلة على حججك، وفى إجابتنا عليك (وكذلك كل من راسلك) تلقينا ردا جافا ورافضا، غير مدعوم بالشواهد، بحيث لا تبدو فيه أى محاولة للرد على النقاط التى أثرناها. من تجربتنا، فإن تلك هى القاعدة فى الاتجاه الصحفى السائد؛ لا ترحيب بأى مناقشة جادة؛ بل يعامل الاختلاف فى الرأى بازدراء وسخرية، أو يتم تجاهله، لا وجود لضرورة عرض الفكرة وتفنيدها، ومنافشتها، والنقاش حولها ـ من المفروض أنه ما علينا نحن الجمهور المتلقى إلا الإصغاء إلى عباراتكم الحكيمة، ثم نلزم الصمت. والتجرؤ على القيام بأى شىء آخر محكوم عليه بالغضب والاستياء من جانب الصحافيين الذين يبدو أنهم ينظرون إلى أنفسهم كشخصيات مشهورة ليس علينا إلا تبجيلهم، وليس كأشخاص يقومون بنشاط يدخل فى مجال الخدمة العامة، التى تستوجب التمحيص الحاد، إذا ما كانت تؤدَّى على الوجه الأكمل.

لا يسعنا إلا التأمل فى حقيقة أنك واحد من أكثر المعلقين الليبراليين الذين يحظون بالاحترام فى التيار الرئيسى. وقد لاحظنا كذلك أنك بالكاد تتصدى إلى الاتهامات الجادة ـ من أن حكومتنا مسئولة بحق عن الإبادة الجماعية فى العراق. وأن أداءك فى مثل هذا الموضوع الحيوى ليس إلا مزيداً من الإيضاح للوضع المرعب «للصحافة الحرة» فى دولتنا.



الفصل الثالث

نزع سلاح العراق

دفن التفتيش على الأسلحة من ١٩٩١ ـ ١٩٩٨م

لقد انسحبوا لعدم قدرتهم على القيام بمهام وظيفتهم. أعنى علينا ألا نكون سخفاء حول هذا الموضوع، لا داعى لوجود مفتشى الأسلحة هناك إلا إذا كانوا يؤدون المهمة التى ذهبوا من أجلها إلى هناك.

(تونى بلير، حديث خاص لأخبار المساء فى بى. بى. سى، ٦ فبراير ٢٠٠٣م).

إذا ما كان الأمر قد عرض على محكمة تنفذ القانون، لكان قد اتجه اتجاها آخر. أظهر العراق - فى واقع الأمر - المزيد والمزيد من الرغبة فى التعاون مع مفتشى الأسلحة.

(مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة فى العراق ١٩٩١ - ١٩٩٨م سكوت ريتر فى ريتر ووليام ريفرز پيت، الحرب على العراق، ٢٠٠٢م، ص٢٥).

أوجد لى طريقة للقيام بهذا العمل

فى الإعداد لغزو العراق، عزز بوش وبلير مبدأين، وكذلك الادعاءات المرتبطة بهما: أن العراق رفض التعاون مع فريق التفتيش على أسلحة الدمار الشامل التابع للأمم المتحدة بين عام ١٩٩١ و ١٩٩٨م، وعلى ذلك، فالعراق لديه أطنان من أسلحة الدمار الشامل التى تمثل «تهديدا حاليًا جادًا» على مصالح الغرب، بما فى ذلك القواعد العسكرية البريطانية فى قبرص.

تم تدعيم أسطورة عدم التعاون بفكرة أن صدام حسين قام بطرد مفتشى الأسلحة فى ديسمبر ١٩٩٨م. كان ذلك الأمر برهانًا جوهريًا تم استخدامه لبيان أن كل محاولات الحل السلمى لقضية أسلحة الدمار الشامل قد استنفدت تماما، وأن أى محاولات تالية بطلب التفاوض عقيمة وساذجة.

هذه الحجة بالتالى كانت مهمة؛ لأن بوش وبلير كانا قد قررا الهجوم على العراق واحتلاله؛ لم يكن الحل السلمى مطروحا على جدول أعمالهما. وصف وزير الخزانة الأمريكية السابق پول أونيل كيف أن إدارة بوش تولت مهام عملها وهى مصممة على الإطاحة بصدام حسين، واستخدمت هجمات ١١ سبتمبر كذريعة:

كان الجميع يسعون إلى إيجاد طريقة للقيام بهذا العمل. قال الرئيس: وليفكر كل منكم فى طريقة للقيام بذلك... منذ البداية الأولى، كان هناك يقين بأن صدام حسين شخص شرير، وأنه لا بد أن يرحل (چوليان بورجر، بوش قرر طرد صدام «منذ اليوم الأول»، الجارديان، ١٢ يناير ٢٠٠٤م).

كتب أونيل تقريرا يفيد بأنه رأى مذكرة للإعداد للحرب يرجع تاريخها إلى الأيام الأولى من حكم بوش، وتقريراً آخر عليه عبارة «سرى»، «خطة لما بعد صدام»، ورأى أونيل كذلك وثيقة للپنتاجون عنوانها: «شكاوى أجنبية بشأن عقود حقول البترول العراقية»، التى ناقشت تقسيم احتياطيات الوقود العراقى بين شركات البترول العالمية.

ورغم أن الفشل فى تنفيذ قرار الأمم المتحدة الثانى كان يبدو أنه يمثل عقبة تمنع الوصول إلى حل سلمى، إلا أنه فى الواقع مَثَّل إخفاقا فى إضفاء الشرعية على ما يستتبع ذلك من إجراءات عنيفة.

تم نزع سلاحه كلية بحلول ١٩٩٨م

روج القادة الغربيون لفكرة رفض العراق التعاون مع مفتشى الأسلحة ترويجا شديدا. قال بلير على سبيل المثال: قبل أن يطرد [صدام حسين] مفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة منذ ثلاث سنوات مضت، فإنهم اكتشفوا ودمروا آلافًا من الأسلحة الكيماوية والبيولوچية... وعندما اقتربوا من مزيد من أنواع الأسلحة، طلب منهم مغادرة العراق (إستراتيچية الغرب القوية ضد العراق هى فى صالح الجميع، الديلى إكسپريس، ٦ مارس ٢٠٠٢م). قال چورچ بوش: «هذا نظام وافق على التفتيش الدولى ـ ثم طرد المفتشين» (خطاب عن حالة الاتحاد فى ٢٩ يناير ٢٠٠٢م <www.whitehouse.gov>). وصف وزير الخارجية البريطانى چاك سترو الموقف: «أخشى أن يصاب القرار الدولى بالتصدع، ويستطيع صدام حسين آنئذ استغلال ذلك وطرد المفتشين (إذاعة بى. بى. سى. ٤، ١٢ أكتوبر، ٢٠٠٢م). فى مقابلة شخصية أجرتها بى. بى. سى، أعلن بيل كلينتون كيف أنه فى ديسمبر ١٩٩٨م، «طرد صدام المفتشين محاولا إجبارنا على إنهاء العقوبات» (مقابلة شخصية مع كلينتون، پانوراما خاصة، ٢٢ يونيو ٢٠٠٤م).

وكما سوف نرى فيما بعد، كانت كل تلك العبارات زائفة تماما، لم يطرد صدام مفتشى الأسلحة ولم يرفض التعاون معهم. كان كل من بلير، وسترو، وكلينتون، فى مناصبهم فى ذلك الوقت؛ ولذلك يصعب أن يجهلوا الحقيقة.

قُبيل عملية الضربات الجوية فى عملية ثعلب الصحراء ـ التى أمر بها كلينتون فى ديسمبر ١٩٩٨م ـ تم سحب مفتشى الأسلحة من العراق. شرح ريتشارد بتلر الرئيس التنفيذى لفريق المفتشين الدوليين فى كتابه بعنوان **تحدى صدام**:

> تلقيت مكالمة هاتفية من سفير الولايات المتحدة بيتر برليه يدعونى لمحادثة خاصة حول مهمة الولايات المتحدة.. أخبرنى برليه أن تعليمات واشنطن أنه «من الحصافة اتخاذ إجراءات لتأكيد سلامة فريق المفتشين الدوليين فى العراق وأمنه... أخبرته أننى سأتبع هذه النصيحة سأبعد الفريق من العراق» (تحدى صدام، ويدنفيلد ونيكلسون، ٢٠٠٠م، ص٢٢٤).

أعلن سكرتير عام الأمم المتحدة كوفى عنان: «لقد تلقيت بالفعل مكالمة هاتفية من السفير برليه مفادها أنهم طلبوا من رعايا الولايات المتحدة فى المنطقة مغادرتها. وأنهم نصحوا كذلك رئيس فريق المفتشين ريتشارد بتلر بسحب مفتشى الأمم المتحدة على الأسلحة، وتحدثت أنا وبتلر» (جوش فريدمان، تم تأخير إجلاء عدد ١٣٣ فرداً من العاملين التابعين للأمم المتحدة، نيوز داى ١٧ ديسمبر، ١٩٩٨م). أكد سكوت ريتر رئيس فريق المفتشين عن الأسلحة UNSCOM فى ذلك الوقت هذه الرواية عن الأحداث: صدام لم يطرد المفتشين. إن الأوامر صدرت إليهم فى ديسمبر ١٩٩٨م من الولايات المتحدة فى مستهل عملية ثعلب الصحراء (متاهة أخلاقية، إذاعة بى. بى. سى. ٤، ٢٤ يوليه، ٢٠٠٢م).

انسحب المفتشون فى توقيت حساس فى السياسة الأمريكية، عندما تعرض بيل كلينتون للاتهام فى فضيحة مونيكا لوينسكى. بدأ كلينتون سلسلة الضربات الجوية التى استمرت أربعة أيام فى ١٦ ديسمبر، اليوم السابق لتحديد موعد الاستفتاء الشعبى على توجيه الاتهام، توقفت بعد ساعتين من الاقتراع. ذكر ريتر أنه قبل الضربات، «أرسل المفتشون لتنفيذ إجراءات تفتيش حساسة ليس لها علاقة بنزع السلاح، ولكن ليقوموا بأعمال متعلقة بتحريض العراقيين». (ريتر، وريڤرز پيت، **الحرب على العراق**، ص٥٢). فى تقرير نشر

فى اليوم التالى للقصف بالقنابل، تم اقتباس كلمات من ريتر: إن ما قام به [رئيس فريق المفتشين] ريتشارد بتلر الأسبوع الماضى بشأن التفتيش كان أمرا مقررا. كان أمرا يتعلق بتوليد صراع يبرر القصف! زعم ريتر أن مصادر حكومة الولايات المتحدة أخبرته قبل ثلاثة أسابيع «أن الاعتبارين البادين فى الأفق هما حلول شهر رمضان والاتهام الموجه لكلينتون»؛ استمر ريتر:

> إذا نقبت فى الأمر، سوف تقف على سبب هروع ريتشارد بتلر أمس لأربع مكالمات هاتفية. لقد كان يتحدث إلى مستشاره عن الأمن القومى [الأمريكى]. أخبروه أن يكون حاد اللهجة فى تقريره لتهرير القصف بالقنابل (النيويورك پوست، ١٧ ديسمبر، ١٩٩٨م).

فى جداله بأن بتلر كتب تبريراً للحرب، قال دبلوماسى الأمم المتحدة الذى وصف بأنه متعاطف مع واشنطن: «بناء على نفس الحقائق فإن [بتلر] قال إن هناك حوالى ٣٠٠ مفتش [فى الأسابيع الحالية] ونحن نواجه صعوبات فى خمسة مواقع» (واشنطن پوست، ١٧ ديسمبر، ١٩٩٨م).

بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣م، ظهر أن ريتر كان يتحرى الدقة (بل كان فى الواقع محافظًا) فى تأكيد أن العراق «منزوع السلاح بشكل أساسى»، حيث إن ٩٠ - ٩٥ فى المائة من أسلحة الدمار الشامل لديه أزيلت بشكل تم التحقق منه، فى الوقت الذى غادر هو والمفتشون الآخرون البلاد (ريتر، وريفرز پيت، **الحرب على العراق**، ص٢٣). وبوجود نسبة ٥ - ١٠ فى المائة المفقودة، قال ريتر: «إنها لا تمثل أى نوع من برنامج للتسلح. إنما تمثل شذرات من برنامج للتسلح لا يصل فى مجموعه إلى كم كبير، ولكنها - مع ذلك - ما زالت خاضعة للحظر» (المرجع السابق، ص٢٤). ووفقا لحديث ريتر، فإن أى أسلحة متبقية قد تقلصت إلى مجرد قطع صغيرة لا فائدة لها (المرجع السابق، ص٢٩) نتيجة للعمر الافتراضى المحدود للعناصر البيولوچية والكيماوية.

فى أواخر عام ١٩٩٨م، ظهر أن جواسيس وكالة المخابرات المركزية الذين يعملون بصحبة مفتشى الأسلحة، قد استخدموا معلومات تم جمعها لاستهداف صدام حسين أثناء عملية ثعلب الصحراء. كان دور المخابرات المركزية فى إفساد نظام التفتيش على الأسلحة أحد الأسباب الرئيسية فى استقالة ريتر ذلك العام.

كانت النتائج الأساسية واضحة: تعاونت العراق فى «نزع السلاح بشكل أساسى» لبرنامج أسلحة الدمار الشامل. ومع ذلك اصطنعت الولايات المتحدة صراعا فى ديسمبر ١٩٩٨م. لم يُطرد المفتشون آنذاك كما كان الزعم، ولكن سحبهم بتلر لحمايتهم من قنابل الولايات المتحدة الأمريكية. رفض العراق فيما بعد السماح لمفتشى الأسلحة بالعودة، ووصفهم على وجه التحديد بأنهم بمثابة جواسيس يستخدمون المعلومات التى تم جمعها أثناء التفتيش لاستهداف صدام حسين شخصيا فى هجمات عملية ثعلب الصحراء.

كان الموقف المتقهقر لبوش، وبلير، وسترو، وآخرين، أنه بينما لم يُقْدم صدام حسين بالفعل على طرد مفتشى الأسلحة، فإنه جعل أداءهم لمهمتهم شيئا مستحيلا. ومع ذلك وصف ريتر مدى نجاح مفتشى الأسلحة فى نزع أسلحة العراق. وعن إمكانات الأسلحة النووية قال ريتر على سبيل المثال:

> عندما تركت العراق فى ١٩٩٨م. . . كان قد تم التخلص من البنية الأساسية والمرافق بنسبة ١٠٠٪، وليس هناك شك حول هذا الأمر. إن كل أدواتهم وإمكانياتهم كانت قد دمرت تماما. وتم تدمير إمكانيات تصميم الأسلحة. وتم الوصول إلى كل معدات الإنتاج وتدميرها. وقد كانت لنا وسائل لمراقبة ـ من كل من الأرض ومن الجو ـ أشعة جاما التى تصاحب محاولات تخصيب اليورانيوم أو البلوتونيوم. ولم نجد شيئًا (المرجع السابق ص٢٦).

يشرح ريتر كيف جاب المفتشون أنحاء البلاد يراقبون كيماويات العراق، والمرافق البيولوچية والنووية، وركبوا كاميرات ومكبرات وأجروا تفتيشًا بدون سابق إنذار: «لقد مسحنا العراق ـ كل مرفق من مرافق البحث والتطوير، كل جامعة، وكل مدرسة، وكل مستشفى، وكل مصنع للجعة. .» (المرجع السابق، ص٣٨). وفيما يتعلق بإمكانية إعادة بناء أسلحة العراق الكيماوية أضاف ريتر:

> إن اطلاعنا على أحوال العراق يفيد صعوبة إقدامه على ذلك. ففيما يتعلق ببرنامج الأسلحة النووية مثلا، فإن عليهم البداية من الصفر، لقد حرموا من كل الأجهزة، والمرافق، والبحث. عليهم استجلاب الأجهزة المعقدة والتكنولوچيا اللازمة من خلال الشركات المتقدمة. وكل ذلك يُمكن. إن تصنيع الأسلحة الكيماوية يبعث غازات يسهل اكتشافها إذا كان لها وجود

أساسًا. لقد كنا نراقب من خلال الأقمار الصناعية ووسائل أخرى، ولم نجد شيئًا من كل ذلك. إذا كانت العراق تنتج أسلحة اليوم، لكان لدينا دليل حاسم، واضح وبسيط (المرجع السابق ص ٣٢، ٣٣).

بمراجعة سنوات نزع أسلحة العراق بين ١٩٩١ و ١٩٩٨م، قرر المدير التنفيذى لفريق التفتيش على الأسلحة رولف إكيوس فى مايو ٢٠٠٠م، أنه كنتيجة لإذعان العراق التام «لم يكن هناك شيء مجهول بخصوص العراق»، وفى كل المجالات، استأصلنا جميع قدرات العراق بشكل أساسى (جلين رانجوالا، **أهو تهديد للعالم، الحقائق حول أسلحة الدمار الشامل العراقية**، أبريل ٢٠٠٠م <www.arabmediawatch.com/iraq>) ادعى جريج ثيلمان - وهو خبير فى أسلحة الدمار الشامل العراقية، وكبير مسئولى الشئون الخارجية لمدة ٢٥ عامًا - أن الدليل الجوهرى الذى قدمه كولين پاول للأمم المتحدة فى ٥ فبراير ٢٠٠٣م كان محرفًا، وتم خداع الشعب:

> إن المشكلة الأساسية هى أن كبار مسئولى الإدارة كانوا يتمتعون بما يمكن أن أطلق عليه الثقة التامة فى أجهزة الاستخبارات. إنهم يعرفون ما الذى يجب على تلك الأجهزة إظهاره. إنهم فى واقع الأمر عُمْى صُم عن أى نوع من المعلومات التى لا تصدرها مجموعة رجال إدارة المخابرات. إننى أنحو ببعض اللوم على جهاز المخابرات، وبمزيد من اللوم على كبار مسئولى الإدارة.
> (الرجل الذى عرف، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٣م، www.cbsnews.com).

إن راى ماك جوڤرن - المحلل السابق ذا المرتبة الرفيعة فى وكالة المخابرات المركزية - أخبر چون پيلجر أن إدارة بوش طالبت بتشكيل المخابرات على نحو يتمشى مع الأهداف السياسية، قائلا: «إنها عملية تمثيلية تخمينية بنسبة ٩٥ فى المائة» (چون پيلجر، خداع بلير الشامل للجماهير، الديلى ميرور، ٣ فبراير، ٢٠٠٤م).

الشد والجذب - فن قلب الحقائق

توجد عدة ملامح واضحة عن تقارير الميديا فى هذه القضية. ربما الذى يثير الدهشة بشكل أكبر أن الصحف التى نشرت تقارير، وأكدت فكرة أن المفتشين تم طردهم من

العـراق، هي نفسـهـا التى نشـرت تقـارير فى أواخـر ١٩٩٨م وبداية ١٩٩٩م عن أن المفتشين لم يُطردوا.

إن موقـع الميديا الأمـريكى المسـمى (FAIR) اسـتخلص تقـريراً مـذهلا بعنوان: مـا الفرق الذى أحدثته السنوات الأربع: التغطية الإخبارية عن سبب ترك المفتشين للعراق (إضـافى!: حـديث، أكتـوبر ٢٠٠٢م، <www.fair.org>). يتكون التـقرير من عـشرة أمثلة مزدوجة لتقارير الاتجاه السائد فى الميديا منذ ١٩٩٨ و ٢٠٠٢م، تغطى انسحاب مفتشى الأسلحة من العراق. بينما كل الاقتباسات من تقارير ١٩٩٨م تنص على أنه تم سحبهم من العراق، فإن كل الشواهد التى نشرت عام ٢٠٠٢م تزعم أنه أطيح بهم، أو أجبروا على الرحيل. على سـبيل المثال؛ فى ديسـمبر ١٩٩٨م، أصـدرت الواشنطن پوست تقريرا مفاده: «أمر بتلر فريق التفتيش التابع له بمغادرة بغداد، تحسبا لهجوم عسكرى، فى ليلة الثلاثاء - فى الوقت الذى كان فيه معظم أعضاء مجلس الأمن لم يتلقوا بعد هذا التقرير» (الواشنطن پوست، ١٨ ديسمبر ١٩٩٨م). بعد أقل من أربع سنوات، كـتـبت نفس الصـحـيـفـة فى أغـسـطس ٢٠٠٢م: «منذ ١٩٩٨م، عندمـا طُرد مفـتـشو الأمم المتـحـدة، كـانت العـراق بالتـأكـيد تعـمل على صناعة أسلحة كـيمـاوية وبيولوچية» (المقالة الافتتاحية، الواشنطن پوست، ٤ أغسطس ٢٠٠٢ م. مقتبسة من: ما الفرق الذى أحدثته السنوات الأربع؟).

أصدرت إن. بى. سى. توداى تقريرا فى ديسمبر ١٩٩٨م:

> كانت قصة العراق فى قمة فورانها الليلة الماضية عندما قال ريتشارد بتلر رئيس فريق تفتيش الأسلحة التابع للأمم المتحدة: إن العراق لم يتعاون بشكل كامل مع المفتشين - كما وعدوا بذلك. وكنتيجة لذلك، أمرت الأمم المتحدة مفتشيها بمغادرة العراق ذلك الصباح (كاتى كوريك، توداى إن بى سى، ١٦ ديسمبر، ١٩٩٨م فى: ما الفرق الذى أحدثته السنوات الأربع).

بعد أربع سنوات، أصدرت إن بى. سى. توداى تقريرا مؤداه: «بينما تناقش واشنطن متى وكيف تهاجم العراق، جاءت المفاجأة من بغداد. لقد كانت على استعداد لإجراء حوار حول السماح لمفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة بالعودة بعد طردهم منذ سنوات

أربع مضت» (موريس دوبوا، توداى، إن. بى. سى. ٣ أغسطس ٢٠٠٢م فى: ما الفرق الذى أحدثته السنوات الأربع؟).

اطلعنا على هذا التحول نفسه فى التغطية الإعلامية فى المملكة المتحدة. ففى عام ١٩٩٨، أصدرت الجارديان تقريرا مؤداه: قبل ساعات من بدء الهجوم، تم إجلاء ١٢٥ شخصا من مسئولى الأمم المتحدة على وجه السرعة من بغداد إلى البحرين، من ضمنهم مفتشون من اللجنة الخاصة للتفتيش فى العراق، وأعضاء لجنة الوكالة الدولية للطاقة النووية «(چوليان بورجر، وإوين ماك آسكيل، الغارة على صواريخ العراق، الجارديان، ١٧ ديسمبر، ١٩٩٨م). بعد عام، كانت نفس هذه الرواية عن الأحداث هى التى تذكر فى التقارير التى توردها ميديا المملكة المتحدة»: إن لجنة الأمم المتحدة الخاصة المكلفة بمراقبة تدمير أسلحة الدمار الشامل فى العراق، تم سحبها من العراق فى منتصف ديسمبر، قبل بدء الولايات المتحدة وبريطانيا مباشرة فى توجيه عدة ضربات جوية للعراق (داڤيد هيرست، العراق ترفض خطة «الشيطان» التى وضعتها الأمم المتحدة للتخفيف من حدة العقوبات الاقتصادية، الجارديان، ٢٠ ديسمبر، ١٩٩٩م). و: «أنه تم سحب آخر المفتشين لإتاحة الفرصة لحملة القصف الجوى المركز على مدى أربعة أيام فى ديسمبر الماضى» (روسيا تطلب عقد اجتماع عاجل بشأن العراق، الجارديان، ٢ يونيه، ١٩٩٩م).

ومع ذلك كتب بريان ويتاكر محرر الجارديان فى فبراير ٢٠٠٢م: يمكن [لصدام] أن ينجو إذا ما سمح للمفتشين ـ الذين أبعدوا من العراق ـ بالعودة (الحياة بعد صدام: المنتصرون والخاسرون، الجارديان، ٢٥ فبراير ٢٠٠٢م). لاحظت الأوبزرڤر فى سپتمبر ٢٠٠٢م، أن ديكتاتور العراق أصبح أخطر مما كان فى عام ١٩٩٨م، عندما أجبر مفتشى الأمم المتحدة على ترك العراق (پيتر بيومونت، وكمال أحمد: ملف سباق التسلح النووى فى العراق، الأوبزرڤر، ٢٢ سپتمبر، ٢٠٠٢م). وأصدرت الإندپندنت تقريرا فى نفس ذلك الشهر: «أمر بيل كلينتون... ببدء عملية ثعلب الصحراء، آخر أكبر هجوم جوى ضد العراق، بعد طرد مفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٩٨م» (روپرت كورنويل، الولايات المتحدة ـ سعى الرئيس للتأييد من داخل أمريكا وخارجها، الإندپندنت، ٥ سپتمبر ٢٠٠٢م). وكانت الديلى

تلجراف على الجانب الصحيح حين جاء فيها، «رفض صدام . . . دخول مفتشى الأمم المتحدة إلى بعض المواقع، مثل قصور الرئاسة الخاصة به ـ ثم طردهم من العراق». (الافتتاحية: أقنعنا يا مستر بلير، الديلى تلجراف فى ٣١ مارس، ٢٠٠٢م). كتب محرر نيو ستاتسمان السياسى، چون كامفنر:

بعد أربعة أشهر، أعيد تسميع الأزمة الحالية فى العراق، طرد صدام حسين مفتشى الأمم المتحدة، ووقف بلير بجانب عملية ثعلب الصحراء، حملة قصف جوى أخرى للولايات المتحدة، تصاحبها القوات الجوية الملكية (نيو ستاتسمان، ١٧ فبراير، ٢٠٠٣م).

قرر چين كوربين مذيع محطة بى. بى. سى. فى البانوراما «أن المفتشين تم طردهم. . . . وأن انقسام مجلس الأمن أدى إلى أن يُقدم صدام على هذا الفعل الآثم دون أن يتعرض لعواقب. البانوراما، القضية ضد صدام، بى. بى. سى. ١، ٢٣ سپتمبر، ٢٠٠٢م). فى أخبار الظهيرة فى بى. بى. سى.، أفاد چيمس روبينز أن المفتشين «طُلب منهم الرحيل»، بعد تفسخ العلاقات مع العراق (نشرة أخبار الساعة ١٣,٠٠٠ فى بى. بى. سى.، بى. بى. سى ١، ١٧ سپتمبر، ٢٠٠٢م).

هل نسى كل هؤلاء الصحفيين التقارير التى لا بد أنهم عرفوها منذ أربع سنوات مضت؟ أو أن ذاكراتهم وقدراتهم على التفكير المستقل قد اعتراها التشوش بشكل من الأشكال عن طريق دعاية الحكومة؟ يوضح ذلك ملمحًا بارزًا لأداء الميديا ـ وهو أن أعدادا كبيرة من الصحفيين يتحركون كما لو كانوا قطيعًا مطيعًا رغم الشواهد المتاحة لكل ذى عينين، التى تناقض هذه الآراء المجمع عليها.

تجاهلت ميديا المملكة المتحدة أو حرّفت الكثير من المعلومات المتعلقة بنية شن الحرب، رغم أنها برزت فى هذه الميديا نفسها فى أواخر تسعينيات القرن العشرين. أعاد عدد الأحد من الإندپندنت نشر المقابلة الشخصية التى تمت مع بلير فى أخبار المساء فى بى. بى. سى. ٢، فى ٦ فبراير ٢٠٠٣م تجيب على ادعاءاته:

بلير: الحقيقة أن المفتشين طردوا من العراق.

الإندپندنت: لا، لم يحدث.

بليـر : كـأنهـم قـد طردوا بالـفـعل . لقـد عـادوا إلى الأمم المتـحـدة وأبلغـونا أنـهم لن يستطيعوا أداء مهمتهم كمفتشين؛ ولذلك قلنا لهم عليكم مغادرة تلك البلاد .

الإندپندنت : الأمر ليس على هذا النحو تمامًا (آندى ماك سميث ، ملف پاكسمان : حجة بلير لشن الحرب ، عدد الأحد من الإندپندنت ٩ فبراير ٢٠٠٣م) .

مرة أخرى أتيح للجدال التراجعى أن ينشر دون تفنيد ـ لم يتم ذكر حقيقة أن التفتيش الذى أجرى فى ١٩٩١ - ١٩٩٨م كان ناجحًا نجاحًا تامًا تقريبًا ، ولم يرد أى ذكر عن استـفزازات الـولايات المتـحدة وتجـسسـها . إن ذلك اتجـاه سائـد عبـر الميديـا ، رغـم الحقائق المتاحة .

كتبت الجارديان فى سپتمبر ٢٠٠٢م : غـادر المفتشون بغداد فى ديسمبر ١٩٩٨م ، وسط ادعـاءات العـراق بأن بعض المفـتـشين كـانوا يقـومـون بأعـمـال تجسس لصـالح الولايات المتحدة ، واتهامات مضادة حول عدم تعاون العراق مع فريق التفتيش «(مارك أوليڤر ، انشـقـاق الأمم المتـحـدة حول قـضـيـة أسلحة العـراق ، الجارديان ، ١٧ سـپـتـمبـر ٢٠٠٢م) . وأنه : على نحو مختلف عن المفتشين السابقين ، الذين كانت الحكومات هى التى تختارهم ، وتعد الأمم المتحدة فى المرتبة الثانية ، فإن المجموعة الأخرى من المفتشين كـانت تابعة مباشرة للأمم المتحدة ـ وهو تحرك الغـرض منه دراسة شكاوى العراق حـول استغلال المفتشين السابقين فى أنشطة تجسس تحت ستار التفتيش» (بريان ويتاكر وداڤيد تيثر ، التفتيش على الأسلحة يواجه صعابا جمة ، الجارديان ، ١٨ سپتمبر ٢٠٠٢م) . ومـرة أخـرى : «مـن ناحيـتـهـا ، تدعى العـراق بأن فـريق المفـتـشين التـابع للأمم المتـحـدة جـواسيس بكـل معنى الكلمة» (سيمـون چيـفرى ، مـا هى فـرق مـفـتـشى الأسلحـة؟ الجارديان ، ١٨ سپتمر ٢٠٠٢م) .

إن مـا يثير الـدهشة فى هـذه الإشارات إلى «مزاعم العـراق» ، مرة بـ «شكاوى» ومـرة أخرى بـ «ادعـاءات» ، أنها تتجاهل مـا نشرته الجـارديان نفسـها قبل ثلاث سنوات فقط . ولنتأمل هذا التقرير الصادر فى مارس ١٩٩٩م ، والذى كتبه چوليان بورجر :

> تجـسس أمـريكى فى العـراق ، تحت غطاء من تفـتـيش الأمم المتـحـدة على الأسلحة ، يتم بعيدًا عن البحث عن الأسلحة المحظورة ، ويتم دون معرفة

قيادة الأمم المتحدة، ذلك ما جاء فى تقرير الأمس. أجرت صحيفة الواشنطن بوست تحقيقًا توصل إلى أن مهندسى وكالة المخابرات الأمريكية الذين يعملون كفنيين تابعين للأمم المتحدة، ركبوا أجهزة تنصت حساسة فى المعدات التابعة للجنة الخاصة للأمم المتحدة لاستراق السمع على المواقع العسكرية العراقية. (الأمم المتحدة تجهل تجسس الولايات المتحدة فى العراق، الجارديان، ٣ مارس، ١٩٩٩م).

من الواضح تماما أن ذلك ليس «مزاعم عراقية» إنه محصلة تحقيق قامت به صحيفة أمريكية قومية رائدة وهى الواشنطن پوست. فى فترة مبكرة من ذلك العام أصدرت الجارديان تقريراً آخر من مصدر غير عراقى:

إن فريق المفتشين التابع للأمم المتحدة فى العراق مكلف بمهام تخابرية سرية ليس مع الولايات المتحدة وحدها، ولكن مع أربع دول أخرى(*)، ذلك ما أدلى به مفتش سابق بالأمس. يحتمل أن بريطانيا واحدة من هذه الدول.

ذكر سكوت ريتر ـ أحد أعضاء فريق التفتيش التابع للأمم المتحدة والأمريكى الجنسية ـ أن فريق الأمم المتحدة وافق على إمداد الدول الخمس بالمعلومات التى يتم جمعها فى مقابل الحصول على معلومات مخابراتية من مصادرهم. أشعلت هذه الادعاءات الجدل الدائر حول أنشطة فريق التفتيش التابع للأمم المتحدة، واعترف مسئولو الولايات المتحدة بتسريب معلومات عن طريق الجواسيس الأمريكيين (ريتشارد نورتون ـ تيلور، مفتشو الأسلحة «تقاسموا المعلومات عن العراق مع خمس دول»، الجارديان، ٨ يناير، ١٩٩٩م).

مرة أخرى كانت ادعاءات الولايات المتحدة والأمم المتحدة مدعومة بتصريحات مسئولى الولايات المتحدة الذين اعترفوا بأن فريق التفتيش كان مخترقًا بواسطة جواسيس أمريكيين.

وفى المسار نفسه، فإن الأوبزرڤر التى ترصد العلاقات الغربية مع العراق منذ عام ١٩٢٠م عرضت هذه الافتتاحية فى ١٩٩٨م:

(*) هل إسرائيل من بين هذه الدول؟ ـ المترجمة.

أنهى العراق كل تعاون له مع اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة التى تراقب تدمير أسلحة الدمار الشامل فى العراق . بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا عملية ثعلب الصحراء، وهى حملة قصف بالقنابل تستهدف تدمير البرنامج العراقى الخاص بالأسلحة النووية والكيماوية والبيولوچية (من صديق إلى عدو، الأوبزرڤر، ١٧ مارس ٢٠٠٢م).

لم يرد ذكر أى تحرش متعمد من الولايات المتحدة لإشعال الصراع لأغراض سياسية محلية وأسباب أخرى . مرة أخرى فإن اختراق المفتشين بواسطة جواسيس وكالة المخابرات المركزية قد تم محوه من التاريخ . لم يرد ذكر لحقيقة أن المعلومات التى حصل عليها الجواسيس، استخدمت فيما بعد للغارة على العراق .

أوضح المحلل العسكرى الأمريكى وليام آركين أن الهدف الأساسى من عملية ثعلب الصحراء كان أجهزة الأمن الداخلية لصدام حسين، مستخدمة المعلومات التى تم جمعها من فريق التفتيش على أسلحة الدمار الشامل (انظر ميلان راى، **خطة حرب العراق**، ڤيرسو، ٢٠٠٢م) . كان ذلك فى نظر أى تقدير أمين هو السبب فى رفض العراق لعودة المفتشين عن أساس من السماح لهم ـ دون قيد ـ بالتفتيش فى أى وقت، وأى مكان، وفى كل مكان، كما طالبت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة .

ولكن بالنسبة لـ «صحافتنا الحرة»، التى تحيطها الشبهات تماما، فإن هذا النوع من الحقائق، محكوم عليه بأنه مجرد دعاية عراقية، والأفضل حذفها .

فى عام ٢٠٠٢م، تم ذكر عبارة العراق والمفتشين عدد ٧٣٦ مرة فى مقالات الجارديان والأوبزرڤر . واستطعنا أن نجد نصف دستة من المقالات تؤكد أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية اخترقت صفوف مفتشى الأسلحة منذ ١٩٩٨م . اكتفت تلك المقالات بذكر مقتضب عن وجود جواسيس، أو تقارير نقلها الجواسيس ـ بسرية ـ إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، وحذفت أى ذكر يشير إلى أن تلك المعلومات استخدمت لشن أكبر ضربة عسكرية ضد العراق .

وهذا للتأكيد مجرد مثال واحد على كيفية أداء ميديا الولايات المتحدة والمملكة المتحدة كنظام بمثابة مصفاة لصالح السلطة، بينما تصر على أنها تقدم للجمهور الحقائق الصحيحة والأفكار الصحيحة فى الوقت الصحيح .

لا توجد إجابة محددة

عدسات الميديا ومحرر نشرة المساء فى بى. بى. سى. چورچ إنتويستل

فى بحث مقالة نيو ستاتسمان، عقد داڤيد إدواردز مقابلة شخصية مع چورچ إنتويستل (٣١ مارس، ٢٠٠٣م) محرر برنامج أخبار المساء فى بى . بى . سى . اشتمل جزء من المقابلة على سؤال إنتويستل إذا ما كان سكوت ريتر قد ظهر فى برنامج أخبار المساء فى الشهور القريبة. كما سبق وناقشنا، فإن ريتر وصف كيف تم تجريد العراق كلية من أسلحة الدمار بحلول عام ١٩٩٨م دون تهديد بالحرب، وأن الأسلحة المتبقية من أسلحة الدمار الشامل لم تعد أكثر من «نفايات» غير ضارة. لكن تم تجاهل حديثه تماما من الاتجاه السائد فى الصحف حتى قيام الحرب. وفى ٢٠٠٣م، ذكرت كل من الجارديان والأوبزرڤر العراق فى عدد مقالات بلغ ١٢,٣٥٦ مقالا. ذكر ريتر فيها ١٧ مرة ـ وحسب.

داڤيد إدواردز (د. إ.): هل قارنت أقوال ريتر مع أقوال متحدثى الحكومة الرسميين مثل: مايك أوبريان، وچون رايد.

چورچ إنتويستل (چ. إ.): لا أتذكر آخر مرة سمعنا ريتر.

د. إ.: هل قابلته أو أجريت معه حديثا هذا العام؟

چ. إ.: لا، هذا العام ٢٠٠٣ لم يحدث.

د. إ: لماذا؟

چ. إ: ليس لدىَّ إجابة عن ذلك، إنما هذا ما حدث.

د. إ: ألا يعد ذا أهمية كبرى، وشاهدًا ذا سلطة على هذه الأحداث؟

چ. إ: أظن أنه شاهد مهم. أعنى أننا. .

د. إ: حسنا، لقد كان رئيس فريق المفتشين على أسلحة الدمار الشامل.

چ. إ: صحيح تمامًا، لقد سجلنا مع إكيوس، وكثير من الناس مثله.

د. إ: ولكن لماذا ليس مع ريتر؟.

چ. إ: ليس لدى إجابة معينة حول ذلك. . أعنى أننا أحيانا نتصل تليفونيا ببعض الأشخاص ولا يتاح لنا الوصول إليهم؛ وأحيانا يمكننا.

د. إ: حسنا، أعرف أنه ممتاز للغاية. إنه يتحدث دائما وفى كل مكان. إنه يذهب إلى العراق وهكذا. . .

چ. إ: ليس هناك شيء معين. . . ليس هناك شيء ضده؛ كل ما فى الأمر أننى لا أجده كلما احتجت إليه.

د. إ: والأمر الآخر هو. . .

چ. إ: داڤيد، هل يمكننى أن أطرح عليك سؤالا بهذا الشأن؟

د. إ: طبعا.

چ. إ: ما الموضوع الذى تريد الوصول إليه؟

د. إ: ماذا، آسف، كل ما فى الأمر لماذا لم. . ؟

چ. إ: ليس هذا ما أعنيه، أعنى أن كل هذه الأسئلة موجهة نحو وجهة معينة؛ هل تعتقد أن أخبار المساء بمثابة منظمة مؤيدة للحكومة؟

د. إ: شعورى أنكم تتعمدون تفادى إحراج الحكومة (إنتويستل يضحك) فى اختياركم من تجرون معهم المقابلات وغير ذلك. إنهم بمثابة محاورين للمؤسسة الرسمية. لم أر أشخاصا مثل تشومسكى، أو إدوارد هيرمان، أو هاوارد دين، أو مايكل آلبرت، كما تعرف. . . هناك كم كبير من المعارضين. . .

چ. إ : حسنا، حاولنا مؤخرا الاتصال بتشومسكى، ولكنه لم يرغب فى المجيء لأسباب لا أستطيع شرحها. من هو الشخص الذى كان رجل برنامج الأمم المتحدة. . ؟

د. إ: دنيس هاليداى؟

چ. إ: أوه، لقد تحدثنا معه. أعتقد أن متخصصنا فى بلير فى برنامجنا الخاص على بى. بى. سى. واجهه (بلير) بكل الافتراضات التى تثير الإزعاج.

د. إ: الأمر الآخر أن مفتشى الأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل، وتقارير وكالة المخابرات المركزية وغيرها، ذكرت أن ما تبقى لدى العراق ليس إلا نفايات ـ هذه هى الكلمة التى استخدموها ـ لأنه على سبيل المثال فإن الأنثراكس قد يستمر تأثيره لمدة ثلاث سنوات إذا تم تخزينه ظروف جيدة. مرة أخرى، إنكم لم تلجئوا لأشخاص من أمثال چون ريد ومايك أوبريان.

چ. إ: لا أتذكر أننا فعلنا ذلك أو لم نفعل. هل تابعت كل ما أذيع منذ ذلك الحين؟

د. إ: الكثير للغاية. هذا العام على سبيل المثال، هل غطيت هذا الأمر؟

چ. إ: أوه، سأفحص ذلك الأمر. أعنى أننا نقوم بعدد لانهاية له من تحقيقات حول موضوع التفتيش على أسلحة الدمار الشامل، عن ملف الأسلحة وكل ما حولها.

د. إ: بالتأكيد، حول ذلك حدث، ولكن حول حقيقة المتبقى من تلك الأسلحة لم يتم ذكر أقل شيء عنها، أعنى...

چ. إ: سوف يمكننى.. على أن ألقى نظرة على هذا الموضوع.

د. إ: لم تغط هذا الأمر؟، هل حدث ذلك؟

چ. إ: بأمانة لا أعرف، علىَّ أن أعاود فحص ما حدث. بصدق لا يمكننى أن أتذكر كل ما قمنا بتغطيته.

د. إ: بالتأكيد، لكن ما أعنيه أن هذه نقطة رئيسية، أليس كذلك؟

چ. إ: بالقطع، وهى من نوع النقاط التى ننشغل بها.

د. إ: حسنا لكنى لم أرها.

چ. إ: حسنا، أعنى، أعد بأننى سأعاود الاتصال بك لأرى إذا ما كان فى مقدورى تقديم أى مساعدة.

بعد هذه المحادثة، أرسل إنتويستل لإدواردز بالبريد الإليكترونى أنه يقدم ما يعتبر شاهدا قويا على أن أخبار المساء قد تحدثت بالفعل عن حجج الحكومة فى قضية الحرب على العراق. ذكر الحوار بين مقدم أخبار المساء چيريمى پاكسمان وبين تونى بلير (بلير والعراق - خاص بأخبار المساء):

تونى بلير: حسنا، لقد أكدت مرارا أننى كثيرا ما طرح علىّ هذا السؤال وقدمت إجابة عنه، لقد استنفدت الوسائل، والحقيقة أن نظام العقوبات قد بدأ فى التقوض، وذلك هو السبب فى أننا أجرينا عدة مفاوضات حول التشديد من نظام العقوبات، لكن ما حدث أن المفتشين تم طردهم من العراق ولهذا...

چيريمى پاكسمان: لم يتم طردهم من العراق، رئيس الوزراء، لم تكن تلك هى الحقيقة، لقد ترك مفتشو الأسلحة العراق بعد أن تم إخبارهم عن طريق الحكومة الأمريكية أنه سيتم إمطار العراق بالقنابل (ثم تبع ذلك باقى السيناريو، ٣١ مارس ٢٠٠٣م).

وأجبنا على إنتويستل:

ذكرت أن پاكسمان أثار أسطورة طرد المفتشين. أنت على صواب، لقد قارع پاكسمان بلير بالحجة حول طرد المفتشين من العراق، لكن بعد ذلك تم تبادل الآراء حول الموضوع وانتهى الحوار على هذا النحو:

تونى بلير: لقد سحبناهم لأنهم لم يستطيعوا الوفاء بمهام عملهم. أعنى أننا يجب أن نبتعد عن السخافات فى هذا الأمر. ليس هناك ما يدعو لوجود المفتشين هناك إلا أن يقوموا بما أوكل إليهم عمله. ولكن الحقيقة التى نعرفها أن العراق طوال هذه المدة قد أخفى أسلحته.

چيريمى پاكسمان: هذا صحيح.

صحيح، فقد ترك پاكسمان بلير يرتد مرة أخرى إلى خداعه (داڤيد إدواردز ردا على إنتويستل، ٣١ مارس ٢٠٠٣م).

الحقيقة أنه من عام ١٩٩١م ـ إلى عام ١٩٩٨م، انتهى التفتيش بنجاح تام تقريبا. وكما سبق وناقشنا، أصر ريتر على أن العراق «نُزع سلاحه تماما» بحلول ديسمبر ١٩٩٨م، مع إزالة ٩٠ – ٩٥ فى المائة من أسلحة الدمار الشامل لديه. وهكذا اختار إنتويستل مثالا صارخا: پاكسمان وهو يجادل بلير، مثال فشل تماما فى طرح التفنيد الواضح لحجج بلير.

أهو تهديد جاد حال؟
نفايات أسلحة الدمار الشامل

يتعلق مزيد من التجاهل الصارخ للميديا بحقيقة المناقشة ـ التى لا تنتهى ـ حول أسلحة الدمار الشامل، بأن أيّا من التحليلات لم تتعرض بجدية لاحتمال عدم وجود أى أسلحة ذات بال، وهكذا استطاع بوش وبلير وغيرهما نشر قصص مرعبة دونما أى تحد من الاتجاه الصحفى السائد. وعلى سبيل المثال، فى المقابلة التى أجرتها بى. بى. سى. بواسطة المذيع الشهير للغاية چيريمى پاكسمان، استطاع بلير أن يعلن دون أن يتصدى له أحد بالتفنيد: «إننا لا زلنا لا نعرف، على سبيل المثال، ما الذى حدث لآلاف من لترات المواد السامة والأنثراكس التى لا حصر لها، والتى لم تخضع للفحص حينما غادر المفتشون العراق فى ١٩٩٩م» (بلير عن العراق، خاص لأخبار المساء). ولكن الحقيقة التى لا تقبل الجدال، أن العراق ـ كما هو معروف ـ أنتج سائل الأنثراكس ـ الذى يعيش لمدة ثلاث سنوات ـ عام ١٩٩١م فى مصنع تملكه الدولة. وأن هذا المصنع تم قصفه بالقنابل عام ١٩٩٦م. وأى بقايا من الأنثراكس منذ ذلك الحين لا بد أنها أصبحت من قبيل «النفايات» عندما قام بلير بإلقاء بيانه.

يشكك البروفيسور أنتونى هـ. كوردسمان من مركز الدراسات الإستراتيچية والدولية (CSIS) فى احتمال استخدام الأنثراكس العراقى الذى أنتج قبل عام ١٩٩١م فى تصنيع الأسلحة:

> جراثيم الأنثراكس شديدة القوة، ويمكن أن تحقق من ٦٥٪ إلى ٨٠٪ فى إهلاك المرضى الذين لا يتلقون علاجًا لعدة سنوات. ولحسن الحظ أن العراق على ما يبدو ـ لم ينتج عناصر جافة قابلة للتخزين، وأنه ـ على ما يبدو ـ نشر عناصر

أنثراكس رطبة ذات عمر محدود. (ادعاءات وتقييمات حول الأسلحة العراقية التى روج لها. <http://middleeastreference.org.uk.iraqweaponsb.html>)

وسوف يتذكر القراء أن كولين پاول عرض مسحوق الأنثراكس الحيوى الجاف فى بيانه أمام الأمم المتحدة، مشيرا إلى الهجمات بجراثيم الأنثراكس التى يزمع العراق شنها على الولايات المتحدة. ذلك النوع من الأنثراكس «الذى يبدو أن العراق لم يقم بإنتاجه»، وفقا لمركز الدراسات الإستراتيچية والدولية.

إن أى سموم جرثومية لم تكن أكثر من نفايات. فى تقرير موجز لوكالة المخابرات المركزية فى عام ١٩٩٠م بشأن التهديدات التى يمثلها العراق فيما يختص بإمكانيات إنتاج الأسلحة البيولوچية: «إن السموم الجرثومية لا تدوم، فهى تتحلل بسرعة فى البيئة. . [إنها] تظل ثابتة لمدة عام عندما يتم تخزينها فى درجة حرارة أقل من ٢٧° مئوية» (برنامج الحرب البيولوچية العراقى. ورقة صدام فى الحفرة، أغسطس ١٩٩٠م <www.fas.org/irp/gulf/cia/960702/73924_01.htm>).

قيم الملف الإستراتيچى لمركز الدراسات الإستراتيچية والدولية (IISS) فى ٩ سپتمبر ٢٠٠٢م احتمال استعادة العراق لمخزون الأسلحة البيولوچية على النحو التالى: «إن أى سموم جرثومية تم إنتاجها فى ١٩٨٩ - ١٩٩٠م لا طائل منها، ولا فائدة لها» (المرجع السابق).

فى هذه المقابلة الشخصية مع بلير، يصف پاكسمان كيف أن هانز بليكس قال بأنه لم يجد أى شواهد على تصنيع الأسلحة، أو أنه تم إخفاؤها! أجاب بلير:

> لا، لا أعتقد مجدداً صحة هذا القول. أعتقد أن ما قاله هو عدم وجود شواهد تشير إلى تعاون العراق بالشكل المناسب معهم، وأنه يعتقد - على سبيل المثال - أن الغاز الذى يحدث شللا للأعصاب يمكن أن يكون قد تم تصنيعه فى شكل أسلحة.

أثار بلير إمكانية تصنيع الأسلحة المحدثة لشلل الأعصاب - ولكن بليكس أشار فى واقع الأمر إلى أن العراق كان يعمل على هذا الغاز فى الماضى، وأنه كان سيتم تصنيع أسلحة منه فى الماضى (تقرير قدمه هانز بليكس لمجلس الأمن،

الجارديان ٢٧ يناير، ٢٠٠٣م). إن السؤال الحقيقى الذى أشار إليه ريتر هو ببساطة: «هل يوجد فى العراق مصنع لتخصيب الجراثيم المحدثة لشلل الأعصاب حاليّا؟» الإجابة: لا وجود له (ريتر وريڤرز پيت، الحرب على العراق، ص٣٢). عثر المفتشون على مصنع من هذا النوع فى عام ١٩٩٦م، وعندما عثروا عليه قاموا بتدميره. ويفسر ريتر الأمر، «عندما قاموا بذلك فقدت العراق قدرتها على إنتاج VX». وغاز VX سرعان ما يفقد قدرته على التأثير. سجل الملف الإستراتيجى الصادر فى سپتمبر ٢٠٠٢م عن مركز الدراسات الإستراتيجية: «الاحتمال الأقرب للتحقيق هو أن أى إنتاج لغاز VX فى العراق قبل عام ١٩٩١م قد تحلل على مدى العقود الماضية... إن أى مخزون من العنصر ج أو العنصر ف الذى أخفاه العراق عن أعين مفتشى أسلحة الدمار الشامل، الاحتمال الأقرب أنه قد فسد بمرور الوقت» (جلين رانجوالا، ادعاءات الولايات المتحدة عن غاز VX المسبب لشلل الأعصاب تتداعى، ١٦ مارس ٢٠٠٣. (<www.cambridgeclarion.org/VX_rangwala_16 mar2003.html>)

قدَّم فريق العمل فى وزارة الدفاع الأمريكية رؤية ثاقبة عن الأهمية التى يعلقها العراق على قدراته الكيماوية الحربية التى انزعج لها بلير. نسب فريق العمل الأمريكى مستوى التعاون العراقى فى إظهار حجم برنامجه الكيماوى بين ١٩٩١ - ١٩٩٨م إلى حقيقة أن الحكومة العراقية أدركت أن العامل المشل للأعصاب الذى أنتجته ما زال صالحا للاستعمال «ونحن نعتقد أن العراق ببياناته الأخيرة كان متعاونا معنا للغاية، إذ أن قدرا كبيرا من بقايا ذخيرته الحربية ذو فائدة محدودة ـ على عكس البيانات العراقية المليئة بالتفاخر والثقة ـ وذلك بسبب تحلل العوامل الكيماوية ومشكلات التسرب». (قضية الحرب الكيميائية أثناء حرب الخليج الفارسى، فريق العمل فى حرب الجراثيم فى حرب الخليج الفارسى، أپريل ٢٠٠٢م (<www.cia.gov/cia/publicationsgulfwar/cwagents/cwpaperl.htm>)

إنها تلك « بواقى الذخيرة... والمحدودة الفائدة» التى ادعى بلير أنها مبررات لحرب شاملة ضد دولة فقيرة من دول العالم الثالث. ذكر عدد الأحد من جريدة الإندپندنت فى مراجعة هذه الجزئية فى حوار پاكسمان مع بلير ما يلى:

بلير: إن ما أخبرتنا به أجهزة مخابراتنا ـ ولا شك عندى أن ذلك هو نفس ما

أخبرت به المخابرات الأمريكية الرئيس بوش ـ هو وجود أسلحة دمار شامل فى العراق .

إندپندنت الأحد : فى خطابه المطول أمام مجلس الأمن ، أورد كولين پاول شواهد غزيرة عن أن لدى العراقيين أشياء لا يريدون لمفتشى الأسلحة رؤيتها ، ولكنه لم يقدم ـ إلا فى النادر ـ أى برهان عن ما هى تلك الأشياء (ماك سميث ، ملف پاكسمان) .

ولكن الإندپندنت لم تذكر شيئًا عن العمر الافتراضى لتلك الأسلحة ، ولا عن المصانع التى تم قصفها ، أو مفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة الذين رفضوا الادعاءات لسخفها . فى رد فعل على خطاب پاول ذكر ريتر :

كل شىء هنا يبدو مرتبطا بالظروف ، كل شىء هنا يعكس نوعا من ادعاءات وضعتها الولايات المتحدة فى الماضى فيما يتعلق ببرنامج التسلح العراقى . . . وكل ما يفعله [پاول] هو أنه يوجه إليك اللكمات ، يهاجمك ، يهاجمك بشواهد عرضية ، ويثير البلبلة فى صفوف الشعب . إنه لم يكن صادقا ، لقد كذب على الشعب ، لقد ضلل الشعب (ريتر يرفض تقرير پاول ، كيودو نيوز ، ٧ فبراير ، ٢٠٠٣م ، (<www.japantoday.com>) .

* * *

الفصل الرابع

العراق ـ يتسلح من أجل الحرب
ويدفن الموتى



> **لقد بعث ذلك القشعريرة والاشمئزاز إلى نفسى، لدرجة أنى حملت الأمر إلى رئيسى، قلت له: «تعرف يا سيدى أنه لا يجب أن يداخلنا القلق بشأن العراقيين ـ كما تعلم نحن نقوم ـ بصفة أساسية ـ بأعمال إبادة جماعية هناك، إبادة شاملة لآلاف العراقيين» (السيرچنت چيمى ماسى من قوات المارينز الأمريكية، فى مقابلة شخصية مع آمى جودمان فى برنامج الديمقراطية الآن) «مُقَاتِل المارينز: قتلت مدنيين فى العراق» ٢٤ مايو، ٢٠٠٤م ـ** <www.democracynow.org/artice.pl??sid=04/05/24/148212>).

رسالة من أمريكا

فى أواخر عام ٢٠٠٢م وأوائل ٢٠٠٣م، ويوما بعد يوم، ناقش الصحفيون بجدية ما إذا كان إغفال وحيد فى ملف الأسلحة، أو فشل وحيد فى فتح باب خلال ساعتين، أو كشف حفنة من هياكل المدفعية؛ يبرر حشد ثلاثة أرباع مليون جندى لشن هجوم كاسح على دولة محطمة من دول العالم الثالث؟!. فى النشرة الإخبارية فى محطة ITN فى ١٩ ديسمبر ٢٠٠٢م، وفى أخبار الساعات المبكرة من المساء، أعلنت قارئة النشرة كاتى ديرهام:

> لقد كذب صدام حسين على الأمم المتحدة. والعالم على شفا الإقدام على حرب مع العراق. هذه هى رسالة أمريكا هذا المساء. اعترف كبير مفتشى الأمم المتحدة أنه ليس هناك من جديد فى ملف صدام، بينما أكد البيت الأبيض منذ لحظات قليلة أن الرئيس بوش يعد العدة لشن هجوم على العراق (نشرة أخبار المساء، ITY، ITN، ١٩ ديسمبر ٢٠٠٢م).

وفقا لهذا النوع من التقارير، فإن دور الميديا يقتصر على بث وجهة نظر المسئولين. وبما أن هذا هو الوضع، فإن أصحاب السلطة أحرار فى فعل ما يرضيهم ـ وسوف يتم إخبار الشعب ما يعتقد ذوو النفوذ أنه الصواب، أو الخطأ، الأمر الجيد أو السيىء، دون

أى تمحيص عقلانى، وبتجاهل كل الآراء الأخرى باعتبار أنها غير ذات صلة. الشعب دائما فى موقف لا يمكن فيه أن يناقض «الرسالة الصادرة من أمريكا».

حولت ديرهام الأمر إلى المحرر الدولى بيل نيلى، الذى سأل: «ما هو الشيء المفقود» فى ملف الأسلحة الذى قدمته الحكومة العراقية للأمم المتحدة؟ العراق لم يذكر شيئًا عن مئات الهياكل المملوءة بغاز الخردل التى يعرف المفتشون أنه يمتلكها. ذكر العراق فى الماضى أنها فقدت! ليست هناك حاجة واضحة للتساؤل عما إذا كانت هذه الهياكل التى فُقدت تعد بأى شكل من الأشكال سببا لشن حرب مدمرة. لا حاجة بنا إلى القول إذا ما كان استخدام مثل هذه الأسلحة المخيفة ـ التى وصفها المفتشون أنها كأسلحة ميدانية تعد فى مرتبة متدنية للغاية ـ سوف يكون رادعا للرءوس النووية الأمريكية وعددها ١٠,٦٠٠ . لا حاجة للتساؤل عن ما هو السبب ـ إذا ما كانت هذه الأسلحة بمثل هذا الهول ـ فى أن مفتشى الأسلحة كانوا أحرارا فى المجيء والذهاب كما يحلو لهم فى العراق دون أن يجدوا شيئًا.

قال قارئ نشرة الأخبار نيكولاس أوين: «لم يعد السؤال هل سوف نهاجم العراق؟ بل متى؟ وكيف؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟ ما هو الجدول الزمنى للحرب؟ كل الأسئلة التى لا بد من أن يطرحها كل عاقل فى هذا الوقت الحرج سوف تلقى آذانا صماء، علينا إذن أن نفهم أن مسألة الحرب القادمة قد أصبحت أمرا واقعا لا بد من قبوله. إذا كان الأقوياء قد قرروا بالفعل مجرى الأمور، فمن نكون نحن حتى نسأل أو نفند ما قرروا عمله؟. يستمر أوين فى الحديث: «على نحو يخالف حرب الخليج الأخيرة، لاخيار فى ترك العراق وصدام ما زال فى السلطة. هذه الحرب سوف تُعلَن، وصدام سوف يطرد، وهذه الرسالة صادرة من القمة» (المرجع السابق).

مرة أخرى الرسالة من أمريكا ـ هذه المرة من الرئيس نفسه ـ ليست مجرد حرب، بل تغيير نظام حكم! وهكذا يصمم أوين شخصيا على أن تغيير النظام يعد ضرورة ملحة، حتى رغم أن تغيير النظام ـ مثله فى ذلك مثل الحرب نفسها ـ ليس بالتأكيد مرخصا به من الأمم المتحدة، ويمثل جريمة حرب كبرى. وبعد ذلك بكثير، علمنا أنه حتى كبير مستشارى الحكومة البريطانية ـ النائب العام لورد جولد سميث ـ نصح بأن تغيير نظام حكم هو أمر غير مشروع بموجب القانون الدولى. أخبر جولد سميث الحكومة أن «تغيير نظام الحكم

لا يمكن أن يكون سببًا لعمل عسكرى. لا بد من أن نضع هذا الأمر فى أذهاننا عندما نفكر فى قائمة من الأهداف العسكرية، وعندما نعلن بيانًا حكوميًا بشأن أى حملة» (مشورة قانونية من جولد سميث إلى بلير، الجارديان فى ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م).

فى يناير ٢٠٠٣م، أجرى أوين مقابلة شخصية مع نائب قائد القوات الجوية تونى ماسون حول العثور على أحد عشر خزانًا فارغا فى مستودع عراقى، وسأل أوين إذا ما كانت الهياكل تشكل «بندقية الدخان». أجاب نائب القائد علينا أولا التأكد من محتويات الخزانات: «إن بندقية الدخان الحقيقية بالطبع ستكون موجودة بالفعل إذا ما عثر على هذه الخزانات وقد امتلأت بمزيج كيماوى». إن هذا الخزان الوحيد من المفترض أنه يمثل سلاحًا من أسلحة الدمار الشامل؛ ولذلك سيكون خرقًا لقرار الأمم المتحدة رقم ١٤٤١ . تقدم ماسون بعد ذلك ليوضح ما الذى يعنيه هذا الخزان الوحيد بالنسبة لشعب العراق:

> أتوقع أن تكون الحملة الجوية مكثفة للغاية، ولن تكون هذه المرة مركزة على بغداد فقط، وإنما لتدمير قدرة كل القوات العسكرية فى جميع أنحاء الدولة. فى المرة السابقة ـ كما تعلم ـ كنا نركز بكل تأكيد على المنطقة الجنوبية الواقعة حول الكويت؛ لكننا الآن علينا أن نلاحق القوات العراقية عبر الدولة بأكملها.

إن العبارة المراوغة نلاحق (بدلا من الاستيلاء عليها أو حصارها) تشير إلى النسف بالمتفجرات، والإتلاف، وتحويل البشر إلى رماد.

وفى مواقع أخرى، سوف تظهر نغمة ازدراء فى صفحات التعليقات، متسائلة: لِمَ يحدث كل ذلك فى وقت لم تفعل فيه الدولة المستهدفة شيئًا غير المعاناة، والمرضِ، والتضور جوعًا على مدى عقد كامل؟ ولم تهدد أحدا! لكن يسود صمت مبجل على وجه العموم. إن الميديا قد اضطلعت بدور المتنبئ بجو الحرب، تتنبأ بما إذا كانت الحرب ستقوم ومتى سيحدث ذلك، كما لو كانت الحرب قادمة بفعل إلهى.

يبدو أنه قد تم استبعاد أن تقوم الميديا بكل ما فى وسعها لتعترض أو حتى لتمنع قتل الأبرياء بواسطة مجموعة صغيرة من الرجال والنساء الشكاكين عديمى الرحمة. فى ظل

هذا الأداء، من المناسب التأكيد على أن الميديا سوف تتبنى دائما هذا الموقف الذليل مهما كانت ما تحمله مصالح وأهداف شن الحرب من فساد وإفساد.

إن الملمح الأكثر بروزا في تغطية الميديا جدير بالملاحظة. بينما تعددت التخمينات عن النتائج العنيفة المحتملة للأزمة، لم نر ذكرا لما يمكن أن يحدث في حالة الحل السلمي. ماذا لو أن مراقبي الأمم المتحدة قد أصدروا وثيقة في صالح العراق بشأن أسلحة الدمار الشامل؟ لم نجد أي صحفي يسأل إذا ما كان يجب رفع العقوبات غير العسكرية، أو بالفعل جميع أنواع العقوبات. يمكننا تخمين أسباب هذا الصمت، لكن يتضح تماما أنه في الوقت الذي ينظر فيه إلى الحرب وإلى الإبقاء على العقوبات على أنها أهداف رسمية تلقى ترحيبا، فإن أحدا ممن يعنيهم الأمر لا يحبذ إنهاء العقوبات دون «تغيير النظام». وكما كتب ناعوم تشومسكي: «فإن المبدأ الأساسي الذي لم ينتهك إلا في النادر، هو أنه لا وجود لصراع دون أن يكون مصحوبا بمطالب لفرض النفوذ واغتنام المزايا» (**إعاقة الديمقراطية**، هيل ووانج، ١٩٩٢م، ص٧٩).

الوقوع في هوى القتل دون محاكمة

إذا كانت الحرب قد اشتعل أوارها بالفعل، فإن الميديا ما زالت تمارس اللامبالاة بلا أخلاقية حول هجوم الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والمآسي التي سببها. في ٨ أبريل ٢٠٠٣م في نشرة المساء في محطة ITN حان وقت الكرتون. قام أحد مصممي أفلام الكرتون بتصميم فيلم على الكمبيوتر يصور قصف بغداد بقنابل وزنها ٢٠٠٠ رطل بتوجيه من الأقمار الصناعية لقاذفات قنابل حوامة تحت الطلب - مثل الأطباء الذين تحت الطلب - على الأهداف المنشودة (ITN، ٨ أبريل ٢٠٠٣م). نرى القنابل وقد اتجهت إلى أحد المطاعم في ضاحية المنصور ببغداد، الذي اختفى من فوق سطح الأرض. لم يكن هناك أشخاص (كرتون) يسيرون في الشارع، ولا أحد يجلس في المطعم قبل القصف، ولا توجد بقايا أطراف بعد القصف.

ذكرت الجارديان الحادثة الحقيقية التي أسقط فيها الطيار قنابل حقيقية:

> لم أكن أعرف من كان موجوداً هناك. حقيقة لم يكن ذلك يعنيني، كان أمامنا عشر دقائق لتوجيه القنابل نحو الهدف. عشر دقائق - فحسب للتنفيذ.

كان علينا القيام بأشياء كثيرة لتحقيق الهدف، وهكذا تجد نفسك فى حالة مزاجية من الهوى فى الإعدام وقتل الهدف. (چوليان بورجر، وستيوارت ميلار، صدام مراقب. الساعة ٢,٤٨ مساء تلقى الطيارون الأوامر. فى الساعة ٣ مساء حدثت حفرة عمقها ٦٠ قدما من جراء انفجار القنابل فوق المنطقة المستهدفة، الجارديان، ٩ أبريل، ٢٠٠٣م).

قوات خاصة، لانسرز ب ـ ١، طائرات حسب الأوامر، حالة مزاجية للقتل، اقتل الهدف: كل تلك طنطنات تقوم بدور التمويه على التلاعب بالنفوذ والقوة على البشر والأشياء. وكل العبارات التى تستخدم صيغة الأمر، اضربْ، طارد، انف، استعدْ، إنما توحى بأفعال مباشرة وحاسمة لمن يملكون النفوذ والقوة.

لقد أصبحنا متلقين لعبادة السلطة عن طريق مئات الآلاف من المواعظ المملة بإخراج على طريقة هولى وود. كما أوردت دراسة قامت بها مجموعة ميديا جلاسجو فإن الأطفال يمكنهم ترديد مقاطع ضخمة من الحوار من الفيلم البوليسى لب الخيال:

«ينظر الصغار إلى هذا الأمر كأنه من أوجه التميز أن تنسف البشر»، وذلك كما ورد فى تقرير ربح فيلو (الأوبزرڤر ٢٦ أكتوبر، ١٩٩٧م). ينظر الصغار إلى الرجلين اللذين يصوبان البنادق فى الفيلم ڤنسنت وچولز على أنهما يمثلان شخصيات باردة لا قلب لها. ويفسر المشاهد أسباب ذلك: «كان ڤنسنت باردًا؛ لأنه لا يخاف شيئًا ولا يهاب. إنه يتجول هنا وهناك يطلق الرصاص على الناس دون أن يعتريه القلق أو الاهتمام». وقبل كل شيء، فإنه إذا كانت القوة هى امتلاك قوات حربية ضخمة، فإن القوة المتناهية هى نشر الجنود والأسلحة الضخمة بالحد الأدنى من الجهد، والحد الأدنى من العاطفة. «وهكذا تقع فى أسر حالة مزاجية للقتل، اقتل الهدف».

الرجل الأعظم، ورئيس الوزراء الأقوى ـ سقوط بغداد

فى ٩ أبريل ٢٠٠٣م حييت الميديا بصوت رجل واحد، النصر العظيم لقوات التحالف؛ حيث دخلت القوات الأمريكية إلى بغداد. أعلن مذيع بى. بى. سى. نيكولاس ويتشيل: «إنه بشكل مطلق، بشكل لا يحتمل الشك، نجاح الإستراتيچية» (أخبار بى. بى. سى. الساعة ١٨، ٩ أبريل، ٢٠٠٣م). وتهدج صوت قارئة نشرة

بى . بى . سى وهى تحتفى بالحدث، ووصفت ناتاشا كاپلنسكى كيف أصبح بلير - مرة أخرى - تيفلون تونى! وافق مارك مارديل مذيع بى . بى . سى . إنها لحظة تبرئة له (أخبار وقت الإفطار، بى . بى . سى . ١ ، ١٠ أبريل، ٢٠٠٣م). وقال قارئ نشرة قناة آى . تى . إن توم برادلى : «إن هذه الحرب تُعد نجاحًا عظيمًا (أخبار المساء فى نشرة قناة آى . تى . إن . ١٠ أبريل ٢٠٠٣م). أيضًا رأى چون إرفن التبرئة فى وصول قوات المارينز : «إن حربا لم تستغرق سوى ثلاثة أسابيع قد وضعت نهاية لعقود من شقاء العراقيين» (التليفزيون القومى، أخبار المساء، آى . تى . إن . ، ٩ أبريل ٢٠٠٣م). كلمات مرة منذ لحظة النطق بها . على القناة ٤ أخبر چاك سترو وزير الخارجية المذيع چون سنو أنه التقى بوزير الخارجية الفرنسى ذلك اليوم . سأله سنو بسخرية «هل بدا أنه تم تهذيبه؟» (القناة ٤ الأخبار، ٩ أبريل، ٢٠٠٣م). فى البرنامج نفسه، أنهى المعلق داڤيد سميث تقريره من واشنطن بعبارة اقتبسها من أحد قادة الجمهوريين بمجلس الشيوخ : «الآن فقط داخلنا السرور بأن لدينا قائدًا أعلى للقوات المسلحة لم يستمع لهولى وود أو النيويورك تايمز أو الفرنسيين». ذكر مراسل بى . بى . سى . فى بغداد راجح عمر أن الجميع أغمى عليهم من النشوة تحت أقدام جيش الغزو :

> كثيرا ما ساءلت نفسى : ما الذى يمكننى تصوره عندما أرى أول جنود بريطانيين أو أمريكيين بعد ست سنوات من عملى كمراسل فى العراق؟ لا شىء على الإطلاق يعبر عن الواقع الذى أراه . كان رد فعلى هو الذهول وأنا أرى شبابا من نيڤادا وكاليفورنيا - يهرولون هنا وهناك خلف دباباتهم . وهم معنا الآن فى الفندق، وفى المصاعد وفى بهو الفندق . إنها لحظة لم أعد نفسى لها أبدا، أبدا لم أعد نفسى لها . (أخبار بى . بى . سى . الساعة ١٨ ، بى . بى . سى . ١ ، ٩ أبريل ٢٠٠٣م).

فى أخبار الساعة العاشرة فى بى . بى . سى . (٩ أبريل ٢٠٠٣م)، صاح مات فرى : تعطى هذه الصورشرعية للحرب .

بعد أن زالت الشكوك العامة، أصدر آندرو مار المحرر السياسى فى بى . بى . سى . تقريرًا من داونج ستريت : «بصراحة المزاج السائد [فى داونج ستريت] هو الشعور بالارتياح المطلق، لقد راقبت الوزراء وهم يتجولون وابتسامة تشرق على وجوههم

كقطع البطيخ المشقوقة». (أخبار العاشرة بى. بى. سى.، ٩ أبريل، ٢٠٠٣م).
والحقيقة أن مار ألقى ذلك البيان بابتسامته السعيدة المميزة عن المعجزة التى على وشك الحدوث. سُئل مار أن يقوم بوصف مغزى سقوط بغداد. وإليك ما قاله:

إنها لحظة تاريخية: السيد بلير ينعى على كل منتقديه من داخل الحزب أو خارجه توجيه الشكر إليه ـ لأنهم مجرد بشر ـ لأنه كان على صواب، بينما هم أخطئوا. وهو يعلم احتمال وجود مشاكل قادمة، كما قلت. لكنى أعتقد أن الأمر بالنسبة له هام، هام للغاية. لقد أتاح له حرية جديدة وثقة جديدة بالنفس. لطالما واجه انتقادات كثيرة.

أعتقد أن أحدا بعد الآن لن يستطيع أن يقول إن تونى بلير ينساق بدفع من الرأى العام، أو جماعات معينة، أو استطلاعات الرأى. لقد قال إنه سيستطيع دخول بغداد دون إراقة الدماء، وإن شعب العراق سيبارك كل ذلك فى النهاية. وفى كل من هاتين النقطتين كان على حق تماما. وسيكون شيئا من قبيل نكران الجميل حتى لمعارضيه، ألا يعترفوا بأنه اليوم يقف أمام العالم كرجل عظيم، ورئيس وزراء أكثر قوة (مار، أخبار العاشرة فى بى. بى. سى. ١، ٩ أبريل ٢٠٠٣م).

بعد عام واحد من إلقاء هذه الخطبة على الأمة، كتب مار فى كتابه، **مهنتى: تاريخ مختصر عن الصحافة البريطانية**: «إن جافن هويت، وجون سمبسون، وآندرو مار والباقين تم إسناد الوظائف إليهم وهم مطالبون بأن يكونوا محايدين، يعبرون عن قليل من العواطف، وبالتأكيد لا يدلون بأى آراء؛ إن ملايين البشر سيقولون إن الأخبار ما هى إلا نقل الحقائق، ولا شىء أكثر من ذلك» (مهنتى، دار نشر ماكميلان، ٢٠٠٤م، ص٢٧٩).

قلب صدام ـ مسئولية الولايات المتحدة والمملكة المتحدة

بحلول مايو ٢٠٠٣م، بعد شهرين من الغزو، أصدرت منظمة اليونيسيف تقريرا يفيد أن ٣٠٠,٠٠٠ طفل عراقى يواجهون الموت بسبب سوء التغذية الحاد ـ ضعف العدد الذى كان يعانى فى ظل حكم صدام. شىء يدعو للملاحظة أن يؤدى «التحالف

الأمريكي ـ البريطاني» إلى مضاعفة المعاناة في خلال أسابيع قليلة لأطفال العراق عما كان عليه الوضع في فترة حكم صدام، «أحد أكثر أنظمة الحكم سادية على كوكب الأرض»، كما وصفه آندرو راونسلي في صحيفة الأوبزرڤر في مقال بعنوان: «أصوات القدر كانت خاطئة تماما» (الأوبزرڤر، ١٣ أبريل ٢٠٠٣م). حول هذه الكارثة، لم يكن لدى صحفيي الغرب شيئا يقولونه على الإطلاق.

وبعد أسبوع من سقوط بغداد في ٩ أبريل، أصدر الصليب الأحمر تقريرا يفيد أن ٣٢ مستشفى من عدد مستشفيات بغداد البالغ ٣٥ قد انهارت بعد أعمال السلب والعنف ـ وهي كارثة محققة تم الإبلاغ عنها، لكن الميديا سرعان ما أسقطتها من حساباتها.

وعندما لم نتمكن من الوقوف على حقيقة ما يحدث من الاتجاه السائد، تحولنا إلى شبكة الإنترنت. واستطعنا الحصول على بعض الإجابات على موقع ReliefWeb: «بغداد ما زالت تفتقر إلى وجود مستشفيات تعمل بكفاءة تامة»، كان ذلك هو ما قاله مورتن روستروب رئيس منظمة علاج بلا حدود في العراق في ٢ مايو ٢٠٠٣م (أطباء بلا حدود توجه الاتهام إلى الولايات المتحدة بفشل مستشفيات العراق ٢ مايو ٢٠٠٣م <www.reliefwebint>). وكنتيجة لذلك، فإن أمراضا مزمنة مثل مرض السكر، وأمراض القلب، والكلى، والشلل، لا يجد من يعانونها مكانا يتلقون فيه علاجهم. والأمراض المهددة للحياة مثل السل والفشل الكلوى والمواليد بأمراض لا يتم علاجهم نتيجة لنقص الأدوية في العمارة، والبصرة، وكربلاء، والناصرة وأماكن أخرى. قدم روستروب نوعا من الحقائق التي تعتبرها الميديا المنتصرة دائما من الأشياء المحظورة: «قادت الولايات المتحدة تحالفا يركز تماما على الحملة العسكرية التي تنظر إلى النظام الصحي التالي للحرب على أنه لا يمثل أولوية. إن ذلك يعد خطأ، خطأ جسيما. إنهم مسئولون مسئولية تامة».

ذكر أليكس رينتون المنسق الإقليمي لشبكة أوكسفام الإعلامية أن أوكسفام استمرت تحاور القوات الأمريكية والبريطانية لتحمل مسئولياتها كقوة احتلال في حماية المدنيين داخل العراق: نحن نعتقد أنه حتى هذه اللحظة، فشلت قوات الاحتلال في

القيام بمهامها. (أقامت أوكسفام أول مركز لها فى العراق منذ ١٩٩٦م، «تنتقد القوات الأمريكية ـ البريطانية»، ٥ مايو ٢٠٠٣م، www.reliefweb.int

حير الفشل نزلاء مستشفى الرشاد للأمراض النفسية عندما سقطت بغداد فى يد قوات الولايات المتحدة. هرب كل النزلاء المذعورين وعددهم ١٠١٥ حينما بدأ نهب الأدوية والمعدات. وفى ٢٥ أبريل، زار أحد أفراد ستيف ويقر من لجنة مينونيت المركزية مستشفى الرشاد. وسط الدمار، رأى سجلات المرضى التى ترجع إلى عدة عقود مبعثرة هنا وهناك. قام ويقر بمفرده بمحاولة تصنيف أكوام الورق، فى محاولة لعمل سجلات أخرى لها. وصف ويقر الصورة البشعة: تروى هذه الواقعة القصة الكبرى للعراق بعد الاحتلال: تقويض وتدمير المستشفيات، وأنظمة تنقية المياه، وغيرها من الوحدات الحيوية، التى أدت إلى ترك المرضى المصابين فى يأس طاحن. أخبر أحد أفراد فريق المعونات ويقر أن ٧٠٠ مريض من نزلاء الرشاد أصبحوا فى عداد المفقودين فى ١٢ مايو ٢٠٠٣م <www.reliefweb.int>. يجوبون شوارع بغداد المشوهة.

ولنتدبر مدى الجحيم فى المستشفى الوحيد الموجود فى أم القصر، حيث يحتوى اثنتى عشرة سريراً لخدمة حوالى ٤٥٠٠٠ شخص فى مايو ٢٠٠٣م. والأطباء الخمسة العاملون داخل المستشفى من أهل البلد هم فى الواقع طلبة فى السنة الثالثة أو الرابعة من كلية الطب: لا يوجد نظام صحى من أى نوع، لا توجد مرافق أساسية، ولا أطباء مدربون تدريبا عاليا، ولا حجرة عمليات كفء، ولا ثلاجات ـ لا يوجد شىء هناك البتة، على حد قول مارك كوكبورن، المراسل الطبى لشبكة رسكيو (IRIN، حاجة ملحة للعلاج فى مستشفى ضيق ١، ٦ مايو ٢٠٠٣م <www.reliefweb.int>).

ما معنى الداعى الأخلاقى لشن الحرب عند بلير عندما تجرى عمليات جراحية كبيرة للمرضى دون مسكنات، وعليهم أن يضغطوا على أسنانهم، أو يصنعوا قطعة قماش بداخل أفواههم للضغط عليها لتخفيف الألم، وذلك كما جاء فى تقرير كوكبورن؟ أين احتجاجات الدوائر السياسية والإعلامية حول مصير هذه الدولة المنكوبة، والمفترض أننا جئنا لتحريرها؟ أين هى الحملات الصحفية التى تطالب بإرسال أدوية ومعونات أخرى من منافذ الخدمات الصحية الأمريكية أو البريطانية؟

أصبح رد الفعل المخادع للحكومة البريطانية قابلا للتفسير حاليا . إن الممثل الشخصى لتونى بلير الذى تولى منصبه حديثا فى العراق وهو چون ساورز ـ يدعى فى أخبار المساء :

> أنت تركز على المشاكل الموجودة فى بغداد . دعنا نضع الأمر من منظور النسبة والتناسب . فى مدن كبيرة مثل الموصل والبصرة ، وفى أماكن ذات حساسية داخلية خاصة مثل كركوك ، أو أماكن ذات قيمة دينية مثل النجف وكربلاء ، فإن الأوضاع قريبة للغاية من حد السواء والعودة إلى الأوضاع الطبيعية . والموقف فى جميع أنحاء البلاد ليس بمثل هذا السوء ؛ المشكلة كلها هنا فى العاصمة (نشرة أخبار المساء بى . بى . سى . ٢ ، ٤ مايو ، ٢٠٠٣م) .

يوم أن أدلى ساورز بهذا التعليق ، أفاد مندوب اليونيسيف كاريل دو روى بتضاعف معدلات سوء التغذية فى الأطفال دون سن الخامسة فى بغداد منذ فبراير ٢٠٠٣م ، وأضاف : يمكننا القول بأن الموقف على السوء نفسه ، إن لم يكن أكثر سوءًا فى المراكز الحضرية فى جميع أنحاء العراق ، (اليونيسيف : مسح صحة الطفل ، ١٤ مايو ٢٠٠٣م) . وفقا لبيان الحكومة البريطانية : الأمر يقترب من العودة إلى الأوضاع الطبيعية .

دعت عدسات الميديا القراء لسؤال بى . بى . سى . وآى . تى . إن . عن السبب فى أنهما قامتا بتغطية ضئيلة للغاية عن هذه الأزمات الحادة التى أحاقت بالسكان المدنيين فى العراق ؛ أرسل أحد القراء نسخة من خطاب أرسله إلى مدير قطاع الأخبار فى شبكة آى . تى . إن ، داڤيد مانيون :

العزيز داڤيد مانيون

> ما السبب فى هذه التغطية الهزيلة لأزمات طاحنة أصابت سكان العراق المدنيين؟ أرجو أن تراجع تقرير اليونيسيف فى ١٤ مايو الذى يشير إلى أن ٣٠٠,٠٠٠ طفل عراقى يواجهون الموت حاليا من جراء سوء التغذية ـ وهو ضعف العدد فى ظل حكم صدام فى شهر فبراير ـ وأن المعاناة فى أم القصر ، حيث تُجرى عمليات جراحية كبرى دون مسكنات بلغت حدا يقوم فيه

المرضى بضغط أسنانهم، أو وضع قطعة قماش فى أفواههم لاحتمال الألم، وذلك بناء على تقرير العاملين فى برامج المعونة.

لماذا لم تتم مناقشة هذه الأحداث المزعجة بتوسع، إن حكومتنا عليها مسئولية مباشرة فى التخفيف من حدة معاناة شعب العراق، والصحافة يجب عليها أن تطلعنا على هذه الأمور.

ما عليك إلا أن تتخيل ماذا لو حدثت مثل تلك الأمور فى المملكة المتحدة ـ ما نوع الاحتجاجات التى كنا سنطالعها! (صورة إلى عدسات الميديا، ١٩ مايو، ٢٠٠٣م).

تعد هذه الرسالة الإلكترونية قريبة من المثالية فى نظرنا ـ فهى بالغة الإيجاز، ومهذبة، ومنطقية. لقد أثارت قضايا ذات اعتبارات إنسانية حيوية واضحة. أولم نعلم دائما أن الميديا طالما بعدت عن مطالب الناس، ولم تدخل معهم فى مناقشات سياسية، أو تشرك رجل الشارع فى التفكير، والمناقشة، والقيام بعمل فى قضية حيوية من القضايا الحالية؟ إذن، ماذا كان رد فعل داڤيد مانيون؟ «سوف أشعر بمزيد من الامتنان لو توقفتم عن إرسال مثل هذه الرسائل الإلكترونية غير المبررة، شكرا» (أرسلت فى ١٩ مايو ٢٠٠٣م). أرسل مانيون بنفس تلك الإجابة لعدد من الذين كتبوا إليه. تخيل لو أن أيّا من هذه الخطابات أرسلها أى سياسى ردا على أحد مواطنى دائرته! الفرق تم تلخيصه تحت عنوان النص الكلاسيكى لكوران وسيتون على الميديا البريطانية، **سلطة دون مسئولية**. إذا شعر مانيون أن مهام وظيفته لا تحتم عليه الإجابة على أسئلة متعلقة بحصاد أخباره، فيمكنه بسهولة إحالة الخطابات الإليكترونية أو مرسليها إلى جهات أخرى. وبدلا من ذلك فإن المتسائلين يتم إهمالهم، ولا يستحقون أى إجابة شافية.

والذى يتضح أمامنا من ذلك هو الخط الفاصل بين الثقافة المشتركة والسياسات الديمقراطية، يقال إن الميديا فى خدمة الحاجات الديمقراطية للمجتمع؛ بأن تقدم للجمهور المعلومات التى يحتاجها لاتخاذ قرارات على أساس من المعرفة ـ نحن نقدم لهم ما يرغبونه وحسب! هذه هى صيحة مسئولى الميديا المتواترة. لكن هناك مشكلة ـ إن وسائل الإعلام المفروض فيها أن تمدنا بالديمقراطية عن طريق التدفق الحر للمعلومات، تعد هى نفسها عبارة عن بنية هيراركية جامدة للسلطة. إن المؤسسات لا

تخضع للمساءلة، إنها كيان طغياني شمولي، ذات سلطة محددة تماما من أعلى إلى أسفل. يمكن أن يساهم موظفوها في صندوق الاقتراحات، لكن السلطة تنطلق من أعلى ـ لا وجود للديمقراطية في المؤسسة. علاوة على ذلك ـ وكما رأينا ـ فإن مؤسسات الميديا مضطرة ـ قانونيّا ـ أن تضع مصلحة حملة أسهمها في الطليعة المتمثلة في تحقيق الأرباح فوق كل الاعتبارات الأخرى.

كيف يمكننا الاعتقاد بجدية أن هذا الكيان الهيراركي الذي يحركه طمع المؤسسة للربح يمكن أن يقدم معلومات أمينة لمجتمعات ديمقراطية؟ ما معنى الديمقراطية في وجود محطتين تليفزيونيتين رئيستين ومحرر إحداهما يجيب على الأسئلة بعبارة حاسمة: التزم الصمت وارحل!؟

مهملات ضرورية ـ تقرير لانسيت

في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤م، واجه نظام الدعاية تحديًا كبيراً عندما نشرت صحيفة لانسيت العلمية، التي تحظى بالاحترام، تقريراً لعدد من الباحثين من مدرسة چون هوپكنز للصحة العامة، وجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة كولمبيا في نيويورك، بعنوان: معدل الوفيات قبل غزو العراق وبعده في ٢٠٠٣م (<www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIISO.140673604174412/fulltext>). قدر المؤلفون أن حوالي ١٠٠,٠٠٠ مدني عراقي لقوا حتفهم زيادة عما كان متوقعا لو لم يتم الغزو. كتبوا: «أشارت التقارير إلى أن ٨٤ في المائة من الوفيات بسبب عمليات لقوات التحالف، وأن ٩٥ في المائة من هذه الوفيات كانت نتيجة لقصف جوي ومدفعي (تزايد وفيات المدنيين في العراق بشكل مأساوي بعد الغزو، ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٤م، <www.jhsph.edu/Press_Room/Press_Releases/PR_2004 Burnham_Iraq.html>). معظم هؤلاء الذين قتلتهم قوات التحالف كانوا من النساء والأطفال.

قوبل التقرير برفض فوري، وإجابات متشككة، وصمت تام في الميديا. ولم ترد ردود فعل مخيفة ولا غضب كاسح. لم يكتب أحد من القادة مشيرا لأمر كهذا، وبالإضافة إلى عدم المشروعية، يمكن خداع الشعب، إن حكومتنا مسئولة عن موت ١٠٠,٠٠٠ مدني.

الشك أمر منطقى تماما بالطبع، لكن لم ترد أى مناقشات تتيح لواضعى التقرير الإجابة على ما أوردوه. ويبدو أن الصحفيين لم يهتموا بالتأكد من أن تجاهل الحكومة للتقرير ربما كان ينطوى على مزيد من الخداع والتضليل. وبدلا من ذلك كانوا سعداء بالانتقال إلى مواضيع أخرى، الانتقال إلى مواضيع أخرى كرد فعل على قتل جماعى لأبرياء، مما يدل دلالة صادقة على الاضطراب العقلى المشترك.

أظهر بحث لوسائل إعلامنا فى نوفمبر ٢٠٠٤م أن تقرير لانست لم يتم ذكره على وجه الإطلاق فى الأوبزرڤر أو التلجراف، أو الصنداى تلجراف، أو الفاينانشيال تايمز، أو ستار، أو سن، أو غيرها كثير. رصدت الإكسبريس ٧١ كلمة وحسب للتقرير، ولكن فقط فى طبعة لا نكشير، سألنا محرر الأوبزرڤر روجر آلتون، لماذا لم تنشر صحيفته هذا التقرير. أجاب:

عزيزى مستر إدواردز

شكرا لملحوظتك. تم تغطية الأرقام على نحو جيد هذا الأسبوع، لكننى وجدت منهجكم يدعو للشك إلى حد ما... (رسالة إليكترونية لعدسات الميديا فى ١ نوفمبر، ٢٠٠٤م).

فى الواقع تم تغطية الأرقام فى مقالتين مقتضبتين فى الجارديان (٢٩ أكتوبر، و ٣٠ أكتوبر). وكان المقال الثانى منهما بعنوان: «لم يتم الارتياب فى ١٠ حالات لموت مدنيين»، وركز تماما على نقد الحكومة للتقرير دون السماح للمؤلفين بالرد. وأسقطت الجارديان بعد ذلك القصة كلها. بعد تلقى عدد من الشكاوى من قراء عدسات الميديا، نشرت الأوبزرڤر فيما بعد مقالا قصيراً لتغطية التقرير.

نشرت الإندپندنت كذلك مقالتين فى ٢٩ و ٣٠ أكتوبر. ولكن على عكس ما حدث فى الجارديان/ والأوبزرڤر، تبع المقالتين، مقالتان تضمنتا ١٢٠٠ كلمة فى عدد الأحد من الإندپندنت. أخبرنا داڤيد آرونوڤيتش كاتب عمود الجارديان: «لدىَّ إحساس (وقد أكون مخطئا) بأن التقرير قد يكون عديم القيمة» (رسالة إلكترونية لعدسات الميديا، فى ٣٠ أكتوبر، ٢٠٠٤م). وكان ذلك هو كل التغطية الأولية التى قدمتها الصنداى تايمز: «ربما كان بلير يستعيد كلمات بازيل فولتى عندما نشرت لانست وفاة ١٠٠,٠٠٠ عراقى منذ بداية غزو قوات التحالف» (ميتشيل پورتيللو، يجب على الملكة ألا تدع

الألمان يظهرون بمظهر الضحية، صنداى تايمز، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٤م). أما إيڤننج ستاندارد فقد تحايلت على الأمر بعبارتين:

> ظهرت فى الرسائل الإليكترونية دراسة جديدة نشرتها لانست، قدرت سقوط ١٠٠,٠٠٠ ضحية من المدنيين منذ بدء الصراع. لكن المتحدث الرسمى باسم رئيس الوزراء.. أضاف أن رقم ١٠٠,٠٠٠ لا يمكن الوثوق به؛ لأنه تم على أساس استقرائى (پول واف، بلير لا يربط الخسائر بالقوات المسلحة، إيڤننج ستاندارد، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤م).

اقتصرت التايمز على تقرير واحد فى ٢٩ أكتوبر. وكان مخالفا لهذه الحملة الحكومية والإعلامية المشوهة:

> ذكر الإحصائيون الذين حللوا البيانات مساء أمس، أن المنهجية التى استخدمها العلماء كانت قوية، وأن أرقام وفيات المدنيين كانت حذرة للغاية. قالوا إن العمل لم يبرهن على إيضاحات السلطات الأمريكية من أن تعداد الجثث كان أمرا مستحيلا (سام ليستر، يزعم الباحثون أن ١٠٠,٠٠٠ مدنى عراقى لقوا حتفهم فى الحرب، التايمز ٢٩ أكتوبر، ٢٠٠٤م).

معلوماتنا صعوداً وهبوطاً

فى أخبار القناة ٤ (٢٩ أكتوبر)، أمضى المراسل العلمى توم كلارك، ٥٣ ثانية من تقريره الذى يستغرق دقيقتين و ١٥ ثانية يفند منهجية الدراسة: «رفض داوننج ستريت اليوم التقرير لأن الباحثين استخدموا فيه تقنيات استقرائية، والتى يعتبرها غير مناسبة، ويفضل ـ داوننج ستريت العد المفصل للجثث (توم كلارك، القناة ٤، ٢٩ أكتوبر، ٢٠٠٤م).

أكد كلارك كيف أن تقديرات التقرير حول وفيات المدنيين كان أعلى بكثير من التقديرات السابقة:

> ذكر وزير الصحة العراقى وقوع ٣٠٠٠ حالة وفاة بين المدنيين، لكن ذلك ما حدث خلال ستة أشهر.

هناك رقم آخر ـ أكثر من ١٦,٠٠٠ منذ بدء الصراع ـ أورده مشروع يسمى إحصاء الجثث العراقية. استندت تقديراته على حالات الوفاة على أرض المعركة. وأظهرت الدراسة الأخيرة رقما مختلفا تمامًا: حوالى ١٠٠,٠٠٠ حالة وفاة بين المدنيين ـ ويحتمل أكثر من ذلك.

ثم أضاف كلارك بعد ذلك:

لكن بدون وجود جثث، هل يمكن أن نثق فى عد الجثث؟ إن زيادة من حالات الوفاة فى الفالوجا بين المدنيين على نحو غير متناسب يجعل هذه الدراسة مشوهة تماما، حيث أظهرت أن معدل عدد الوفيات فى جميع أنحاء البلاد يصل إلى ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠، وبذلك تكون العائلات التى أجرى عليها المسح قد استبعدت من الأرقام النهائية.

إن مصداقية المقابلات الشخصية لا بد من فحصها كذلك رغم أن أربع عائلات من كل خمس كانوا قادرين على استخراج شهادة وفاة.

يا للعجب، إن كلارك يدعى أن الفالوجا حرّفت بشدة هذه الدراسة، ولكن كما لاحظ هو نفسه، فإن العائلات التى تم مسحها كانت أقل ـ وهكذا فإن الفالوجا لم تحرف التقرير فى واقع الأمر. لكنه بعد ذلك يقلل من مصداقية المقابلات الشخصية، وأنها يجب فحصها ـ بمعنى أن هذه مشكلة إضافية علاوة على التحريف المفترض أنه أهمله. وأخيرا قدم كلارك ادعاءه الجاد:

لكن نقطة الضعف الرئيسية فى الدراسة، والتى جعلت داوننج ستريت يرفض هذه الأرقام، أنها أحصت عينة محدودة ثم طبقتها عبر العراق بأكملها. البلد فى حالة حرب، والسكان بالفعل قد نزحوا من منازلهم أو تم إخلاؤهم، مما يجعل مسح العائلات بعيداً عن الدقة.

يتضح تماما أن مراسلى الأنباء رفضوا المنهجية المستخدمة والنتائج لدراسة تم تنفيذها بدقة، وتم مراجعتها مراجعة دقيقة بواسطة جريدة علمية عالمية رائدة.

سألنا مؤلفى التقرير حول ارتفاع أرقام تقديرات حالات الوفيات بين المدنيين عن التقديرات السابقة، وكذلك عن إمكانية إجراء إحصاء يعوّل عليه رغم عدم وجود جثث، أجاب دكتور جلبرت بيرنهام:

باختصار، استخدمنا منهج مسح قياسى يستخدم فى جميع أنحاء العالم لتقدير عدد الوفيات. وهكذا لا داعى لوجود الجثث لإحصاء الموتى. وفى الحقيقة فإن المرور على المنازل لعمل مسح بالوفيات يعد الطريقة المثلى لإحصاء الوفيات فى جميع أنحاء العالم؛ وربما كان هو المنهج المتبع فى تعداد السكان فى المملكة المتحدة نفسها، رغم أننى لست ديموجرافيّا.

على أى الأحوال، فإن المعلومات التى جمعت فى المسح دائما ما تؤدى إلى إظهار أرقام أكثر ارتفاعًا عن التقرير السلبى، حيث لا يتم تضمينه أشياء كثيرة، هذا هو التفسير السهل للفروق بين عدد الموتى العراقيين الذى أوردته لانست عن عدد جثث الموتى على الإنترنت، والمسح الذى أجريناه.

علاوة على ذلك، فإن المسح قد يتوصل إلى أسباب أخرى للوفيات تتعلق بالمشكلات الصحية للشعب، مثل وفيات الأمهات أثناء الولادة، وموت الأطفال بسبب الأمراض المعدية، وكبار السن غير القادرين على الحصول على الأنسولين، مما لا يستطيع إحصاء الجثث القيام به ـ طالما كان يجمع معلومات من إحصاء الصحف للموتى (عادة الناشئة عن العنف).

هل يمكن لأحد أن يقدر أرقاما على المستوى القومى بناء على عينة؟

الإجابة بنعم بكل تأكيد (هذا هو أساس كل مناهج تعداد السكان)، بشرط أن تكون العينة قومية من عائلات تم اختيارها عشوائيا، وأن تتخذ احتياطات كاملة لتفادى التحيز. هذا هو ما فعلناه. والآن تعتمد دقة النتائج إلى حد كبير على حجم العينة. كلما كبر حجم العينات، كانت النتيجة أكثر دقة، لكن لقد أحصينا ذلك بمنتهى الحذر، ولدينا قدرة إحصائية تكفى للتأكيد بأننا فعلنا ذلك. إن اللجوء إلى أكبر قدر ممكن من العينات قد يجعل الأرقام أكثر دقة، مما قد يترتب عليه مخاطر للقائم بالمسح، وهذا ما كنا نحاول تفاديه، حيث إن الأرقام كانت مرتفعة بقدر كاف بالفعل.

دققنا بياناتنا بواسطة عدد كبير من المراجعين فى لانست وهنا فى المدرسة (كرسى أستاذية قسم الإحصاءات الحيوية)، وهكذا توفرت لنا قوة علمية

نستطيع بموجبها تأكيد أرقامنا . أشك أن أيّا من أبحاث لانست قد مر بكل هذا الفحص الدقيق فى السنوات الأخيرة كما حدث لدراستنا (رسالة إليكترونية لداڤيد إدواردز، ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٤م) .

ألقى توم كلارك من القناة ٤ بملحوظة أشمل : «تعريف المدنيين غير واضح . إن أغلبية الوفيات التى يبدو أنها تعرضت للعنف كانت بين الذكور صغار السن الذين يمكن أن يكونوا ـ أولا يكونوا ـ من بين المتمردين» . كان رد رئيس مجموعة الباحثين، دكتور لى روبرتس عن هذه النقطة :

الموضوع الخاص بالمدنيين واضح . حوالى ٢٥٪ من السكان كانوا من الذكور البالغين . أكثر من ٧٠٪ من الموتى الذين راحوا ضحية حوادث تصادم بالسيارات كانوا من الذكور البالغين . من المفترض أن الوفيات تحدث بينهم أكثر من أى مجموعات سكانية أخرى؛ لأنهم يخرجون من بيوتهم أكثر . أشارت التقارير إلى أن ٤٦٪ من الذين لاقوا حتفهم على يد قوات التحالف كانوا من الذكور البالغين . وهكذا فإن بعضهم قد يكون من المقاتلين، والبعض ليسوا كذلك . . . ربما كانوا خارج منازلهم فحسب، وكانوا فى أماكن مستهدفة . لقد ذكرنا أن أكثر من نصف من قتلوا بيد قوات التحالف كانوا من النساء والأطفال لنشير إلى أنه إذا كانت قوات التحالف تستهدف المقاتلين فقط، فهى لم تنجح فى ذلك . وهكذا كنا نتحرى الدقة عندما نقول إن حوالى ١٠٠,٠٠٠ شخص وربما أكثر قد قتلوا . نظن أن الأغلبية العظمى كانت من المدنيين، ولم نقل إن كل فرد من حوالى ١٠٠,٠٠٠ كانوا مدنيين (رسالة إليكترونية لداڤيد إدواردز فى ٣١ أكتوبر، ٢٠٠٤م) .

اختتم كلارك تقرير القناة ٤ ببيان ملعون : «فى ظل الأوضاع الأمنية المتردية، فلا بد من مرور وقت طويل قبل أن تكون لدينا صورة دقيقة عن الخسائر فى المدنيين العراقيين، هذا إذا أمكن ذلك على الإطلاق» . يوضح ذلك أن المنهجية المستخدمة فى تقرير لانست يمكن نبذها بأمان، حيث فشلت فى تقديم صورة دقيقة عن الخسائر فى المدنيين العراقيين، إنه يعنى أن الباحثين، ومراجعى لانست، ومحررى لانست قد أنتجوا عملا لا يعول عليه . وتكرارا لرد مؤلفى التقرير : «توفرت لنا قوة علمية نستطيع بموجبها

تأكيد أرقامنا . أشك أن أيّا من أبحاث لانست قد مر بكل هذا الفحص الدقيق فى السنوات الأخيرة كما حدث لدراستنا»!

فى ٢٩ أكتوبر صدرت نشرة صحفية من داوننج ستريت :

> بالسؤال عما إذا كان رئيس الوزراء قد أحيط علما بالمسح الذى نشر اليوم والذى يظهر وفاة ١٠٠,٠٠٠ مدنى عراقى نتيجة للحرب فى العراق، قال المتحدث الرسمى باسم رئيس الوزراء إنه من الضرورى معاملة الأرقام بحذر؛ لأن عددا من الاعتبارات والشكوك تحيط بالمنهج الذى استخدمه المسح . أولا : يبدو أن المسح استند على تقنية استقرائية، وليس على إحصاء لعدد الجثث . ويتركز قلقنا على حقيقة أن تقنية الأسئلة يبدو أنها تعاملت مع العراق على أن كل منطقة وحدة واحدة ومتشابهة مع غيرها . بموجب مستوى الصراع، فالأمر ليس كذلك . ثانيا : يبدو أن المسح افترض أن القصف بالقنابل وقع فى جميع أنحاء العراق . مرة أخرى ليس هذا هو الوضع . لقد ركز فى المقام الأول على مناطق مثل الفالوجا . ونحن فى النهاية لا نعتقد أن المنهج الاستقرائى يعد تقنية ملائمة وصالحة للاستخدام
> (<www.number10.gov.uk/output/Page6535.asp>)

رفعنا هذه التساؤلات مرة أخرى لمؤلفى التقرير . أجاب دكتور روبرتس :

> النقطة الأولى صحيحة، وهى ليست خطأ من جانبنا . لقد كان يمكن أن نحصل على صورة أكثر دقة لو أننا استخدمنا عينة مقسمة إلى طبقات، بعض منها موجود فى المناطق التى يسود فيها العنف بكثرة، والأخرى فى مناطق أقل تعرضا لأعمال العنف . لكن ذلك يترتب عليه زيارة منازل أكثر بكثير وتعريض الباحثين إلى مزيد من الخطر . ثانيا : فإننا لا نعرف عدد الأشخاص الموجودين فى المناطق الأكثر عنفًا، يتضمن هذا الأمر افتراضات أكبر، وهو أمر يتعرض حاليا للنقد .
>
> تم أخذ كل العينات بافتراض أن كل المجموعات قابلة للتبادل لأغراض التحليل . والفرق بينهم يعتبر فى تفسير البيانات .

النقطة الثانية تفترض أن القصف يحدث بنفس الدرجة عبر العراق . ولا وجود لمثل هذا الافتراض الواضح . الافتراض الموجود هو أن كل الأفراد فى العراق معرضون لإمكانية الموت (وإذا لم نفترض ذلك ، فلن تكون عينة تمثيلية) . هناك مناطق تتعرض لقصف عنيف مثل الفالوجا ، ونحن استبعدنا ذلك من تقدير عدد ١٠٠,٠٠٠ الذى أوردناه . . . كان من الممكن أن يكون الأمر صحيحا إذا ما افترضنا عدم وجود قصف مكثف فى العراق .

وأخيرًا ، كانت هناك ٧ جماعات فى المنطقة الكردية الشمالية لم يحدث فيها وفيات بسبب العنف . من بين ٢٦ عينة عشوائية فى مناطق الجنوب الذى تم غزوه ، ٥ عينات سجلت وفيات بسبب قصف قوات التحالف . وبذلك أظن أن مثل هذه الحوادث أكثر انتشارا عما أظهرته المراجعة (رسالة إليكترونية إلى داڤيد إدواردز ، ١ نوڤمبر ٢٠٠٤م) .

لم يتم مناقشة أمر من الأمور السابقة فى أى مكان فى صحافة المملكة المتحدة . من الواضح أن فريق بحث چون هوپكنز ، ومحررى لانست ، وفريق مراجعة لانست ، قد اتخذوا بالطبع كل الاحتياطات لتأكيد أن المنهجية المستخدمة يمكنها أن تصمد للفحص . وأشارت نتائج البحث إلى عدد وفيات يناهز ١٠٠,٠٠٠ مدنى عراقى . ولم تهتم الميديا بأى حال من الأحوال . چون پيلجر أصدر تعليقًا فى نيوستاتسمان :

صورت بى . بى . سى . التقرير بموجب شكوك الحكومة ، وقامت أخبار القناة ٤ بعمل منقوص ، بناء على رد داوننج ستريت المقتضب . . طلب داڤيد إدواردز ـ أحد محررى عدسات الميديا ـ من الباحثين الرد على انتقادات الميديا ؛ يمكن الاطلاع على ردهم على موقع www.medialens.org.alert ، ٢ نوڤمبر . ولم يصدر شيء من ذلك فى الاتجاه الصحفى السائد . وهكذا يتم إخماد أى حديث عن تورطنا فى مثل هذا القتل . (العراق : الذى لا يمكن التفكير فيه أصبح المعيار ، نيوستاتسمان ، ١٥ نوڤمبر ٢٠٠٤م) .

المقابر ـ سؤال بسيط من اثنين من الهواة

فى مستهل الحرب ، تقبل كل المعلقين تقريبًا أن العراق فى ظل حكم صدام حسين

عبارة عن غرفة تعذيب شاسعة للسكان المدنيين. عادة ما تحدث الصحفيون والساسة عن غرف الدفن، وغير ذلك.

ادعى ديجبى چونز، المدير العام لاتحاد الصناعة البريطانى، فى سؤال بى. بى. سى. (بى. بى. سى. ١، ١٠ أبريل ٢٠٠٣م) أن صدام قتل «٣ ملايين» شخص. أعلن سير هارولد والكر، السفير السابق فى بغداد على شبكة بى. بى. سى. فى نفس نشرة الأخبار أن نظام صدام: «أشرس نظام استبدادى، على ما أعتقد ـ فى تاريخ البشرية» (أخبار بى. بى. سى. الساعة ١٣، بى. بى. سى. ١، ٣ فبراير ٢٠٠٣م). وفى يونيه ٢٠٠٣م، كتب محرر التلجراف كون كوفلين: «يوم آخر ومقبرة جماعية أخرى تحت الأرض فى العراق» وأضاف:

لم نتمكن من الكشف عن كثير من تلك المواقع التى سويت بالأرض فى غضون هذين الشهرين منذ أن تم الإطاحة بصدام، حتى أن الخبراء أنفسهم بدءوا فى عدم السيطرة على تحديد حجم هذه الإبادة الجماعية التى ارتكبها طاغية العراق وزبانيته... إذا كان ذلك الأمر قد حدث فى كوسوڤو، لكانت الاتهامات النارية وجهت إلى الحكومة لعدم تصرفها السريع لوقف هذه الإبادة الجماعية.

واختتم كوفلين: بعد العودة من العراق التى تم تحريرها بعد ثلاثة أسابيع قضيتها هناك، وجدت أن من الضلال أن يخطر على بال أحد التشكك فى الحكمة من إزاحة صدام حسين من السلطة (وماذا لو أن ترسانة صدام المهلكة لم يتم العثور عليها؟ الحرب كانت عادلة، صنداى تلجراف، ١ يونيه ٢٠٠٣م). فى أكتوبر ٢٠٠٣م، قال عضو البرلمان من حزب العمال آن كلويد:

> فى يونيه من هذا العام، وقفت فوق مواقع القتل التى قام بها صدام. رأيت هياكل عظمية لرجال ونساء، وأطفال محشورين فى هذه المقبرة الجماعية. لا أعتقد أننى ـ ولا أنتم كذلك ـ يمكن أن نغمض أعيننا عن مثل هذه الإبادة الجماعية (پول إيستهام، بلير فى أمان، الدموع تمحو التمرد العمالى بشأن العراق، دايلى ميل، ٢ أكتوبر، ٢٠٠٣م).

علق صحفى الأوبزرڤر آندرو راونسلى:

> نعم، سقطت أعداد كبيرة من القتلى أيضا فى الحرب. عادة يموت كثير من

الأفراد فى الحرب، الحرب قذرة ووحشية، لكن على الأقل هذا الصراع كان قصيرا لحسن الحظ. لم تكن الوفيات بمثل الحجم الذى كنا نخشاه. مات الآلاف فى هذه الحرب، ومات الملايين بيد صدام (أصوات القدر كانت خاطئة تمامًا، الأوبزرڤر ١٣ أبريل، ٢٠٠٣م).

قدم تيموثى جارتون آش حسبة مماثلة فى الجارديان:

إن الحسابات الأخلاقية عن أعداد الضحايا ووضعها فى مقابل بعضها البعض يعد أمرا غير إنسانى: قتل صدام أكثر من ١٠٠,٠٠٠ من الأكراد مقابل ما يتراوح بين ١٠,٠٠٠ ضحية مدنية فى هذه الحرب، الماضى فى مقابل الحاضر، ضحايا فعلية فى مقابل احتمالات، قتل فى حرب مقابل محرقة (أمريكا فى اختبار، الجارديان، ١٧ أبريل ٢٠٠٣م).

يبدو أن الصحفيين والسياسيين يعتقدون بحق أن الإبادة الجماعية كانت تتم فى العراق قبل الغزو مباشرة. ويبدو كذلك أن أحدا منهم لم يفحص هذه الادعاءات فى مقابل نتائج تقرير لانست، التى قامت بدراسة أعداد الموتى العراقيين قبل الغزو وبعده، والتى أجريت على أساس عقد مقابلة شخصية مع ٨,٠٠٠ شخص من أنحاء متفرقة فى العراق.

والنقطة تتمثل فى أن التقرير أنتج تحليلا علميا دقيقا عن عدد الموتى فى فترة كان يقال فيها إن صدام حسين قاتل محترف. لم يأخذ منا الأمر سوى لحظات كى نراسل مؤلفى التقرير ونسألهم عما توصلوا إليه:

هل كشف بحثكم عن شواهد لقتل جماعى قام به نظام حكم صدام حسين فى العام السابق للغزو؟ توجد ادعاءات حكومية ومن الميديا عن عشرات، بل مئات الآلاف من القتلى، بينما أخبرتنى منظمة العفو الدولية أنهم أحصوا الأرقام ووجدوها مجرد مئات. هل ألقى بحثكم أى ضوء على ذلك الأمر؟ (داڤيد إدواردز لدكتور لى روبرتس، ٣٠ أكتوبر، ٢٠٠٤م).

تلقينا فى اليوم التالى ذلك الرد من دكتور لى روبرتس:

صدر تقرير عن حالة وفاة واحدة. عن طريق رجال صدام فى الأيام الأولى

من الحرب (يعتبر بعد الغزو) وهناك شخصان قد اختفيا أثناء الغزو (من الذكور البالغين). نحن لا نعتبر المفقودين فى عداد الموتى. وهكذا ليس لدينا أى دليل على ذلك. لا يبرهن ذلك على عدم حدوث مثل هذا الأمر. فإذا كان الأمر متعلقًا بمجرد مئات الوفيات، فإن عينتنا الصغيرة ربما لم تتبينها (رسالة إليكترونية إلى داڤيد إدواردز، ٣١ أكتوبر، ٢٠٠٤م).

ينطبق ذلك على المعلومات التى سبق وتلقيناها من منظمة العفو الدولية. ففى أبريل ٢٠٠٣م، سألنا منظمة العفو عن إحصائيات موسعة حول جرائم صدام على مدى الخمس وعشرين عاما السابقة. أرسلت إلينا تقريرا عنوانه: **سجل حقوق الإنسان فى العراق منذ ١٩٧٩م**:

كانت الجرائم بشعة، مرتفعة فى عدة أحوال: قتل الآلاف فى ١٩٨٨م، بمصاحبة مزيد من الآلاف فى قمع الثورة الكردية فى الشمال والعرب الشيعة فى الجنوب بعد حرب الخليج فى ١٩٩١م. كتبت منظمة العفو عن عدة آلاف من الأشخاص، معظمهم من المدنيين، قتلوا وجرحوا فى المسيرات التى قام بها سكان الجنوب فى ١٩٩٣م.

أما عن السنوات العشر السابقة، فإن منظمة العفو أصدرت تقريرا فى ١٩٩٤م: اتسعت عقوبة الإعدام بشكل ملحوظ، وإن هناك أعداداً ضخمة من الأشخاص تم إعدامهم تنفيذاً لأحكام قضائية «فى عام ١٩٩٥م: تم إعدام مئات الأشخاص تنفيذا لحكم قضائى. فى عام ١٩٩٦م: أعدم المئات تنفيذاً لحكم قضائى خلال العام، من بينهم مائة من المعارضة»، فى أعوام ١٩٩٧، ١٩٩٨، ١٩٩٩، ٢٠٠٠م، استخدمت الكلمات نفسها: «تم الإبلاغ عن تنفيذ حكم الإعدام فى المئات. فى ٢٠٠١م تم إعدام عشرين شخصا. فى أكتوبر ٢٠٠٢م: حدث بعض التطور بالإفراج عن آلاف من المساجين، وإلغاء بعض العقوبات بما فيها الإعدام. فى يناير ٢٠٠٣م، إلغاء مجموعة قوانين استثنائية حول التشويه والبتر - لم تعد نافذة بعد - كانت تلك أفعال صادرة من صدام حسين الذى اعتراه اليأس، والذى يواجه هجوما حادًا».

استمرت منظمة العفو فى تلقى تقارير عن انتهاك حقوق الإنسان تتضمن الاعتقال التعسفى واستمرار سياسة طرد الأكراد من كركوك إلى كردستان العراقية. جمعت

منظمة العفو كذلك معلومات عن حوالى ١٧٠٠٠ قضية عن اختفاءات تمت على مدى العشرين عاما السابقة. ربما كانت الأرقام الحقيقية أعلى من ذلك.

كانت هذه الجرائم بشعة بالطبع - كان صدام دكتاتوراً قاتلاً - ولكن لنلاحظ أن عدد القتلى كان بالمئات، لا بالآلاف، وليس بمئات الآلاف ولا الملايين. لمعلوماتنا، لم يعلق صحفي واحد على مغزى النتائج التي توصلت إليها لانست بالنسبة للأسباب الأخلاقية للحرب - حيث الادعاء بأن صدام حسين قتل - ولا يزال يقتل - آلافًا لا حصر لها من العراقيين.

الكل يهلل للعراق الديمقراطية!ـ كوميديا سوداء

قبل زعم «نقل السيادة» في يونيه ٢٠٠٤م، أصرت الميديا بلا كلل على أن التحالف سوف يسلم السلطة إلى العراقيين، في ٣٠ يونيه (لورا تريفيليان، أخبار الساعة ٤٥ : ١٦ بي. بي. سي. ١، ٢٣ مايو ٢٠٠٤م) سينتهي الاحتلال سريعًا (أورلا جيورين، بي. بي. سي. أخبار الساعة ٠٠ : ١٩ بي. بي. سي. ١، ١٦ يونيه ٢٠٠٤م). كان موت جندي بريطاني واحد في البصرة حدثا مأساويا، ذكرت مراسلة بي. بي. سي. في الشرق الأوسط أورلا جيورين؛ لأنه كان هناك فسوف يكون آخر جندي يموت في ظل الاحتلال (أخبار بي. بي. سي. الساعة ٠٠ : ١٣، بي. بي. سي. ١، ٢٨ يونيه ٢٠٠٤م). أعلن مراسل واشنطن مات فراي: العراق ذو سيادة، وحر في يوم مشهود من أيام العراق، «إنه يوم تاريخي»، وافق آنا فورد مذيع بي. بي. سي. على ذلك الكلام في البرنامج نفسه.

حتى أكثر المشاهدين بطئًا في التفكير لا بد سيندهش كيف يكون كل ذلك صحيحا بينما القوات الأمريكية وغيرها مستمرة في التدفق على العراق؟ - كيف ينتهي الاحتلال قبل أن ينتهي وجود القوات المحتلة؟ وكيف يتم تعيين حكومة عراقية عن طريق قوة الغزو الأمريكية فائقة النفوذ، وليس عن طريق انتخاب العراقيين الذين أصبحوا «أحرارًا»؟

في نشرة أخبار المساء، ذكر جيورين كيف تشارك القوات العراقية في احتفال «لأنها ظلت طوال وجودها تنتظر لتحصل على حريتها»، مع ملاحظة أن العراقيين يشعرون

بالرضا بأن السلطة ستنتقل مرة أخرى إلى أيديهم (نشرة أخبار بى . بى . سى . الساعة ١٨:٠٠ ، بى . بى . سى . ١ ، ٢٨ يونيــه، ٢٠٠٤م) . أبرز المراسل الديبلومــاسى چيمس روبنز شعوراً خفيّا بالتضارب مع الحقيقة، إذ لاحظ أن السؤال الرئيسى ما زال باقيا: هل يمكن أن تحقق العراق الديمقراطية؟ (المرجع السابق) . وهكذا فإن السلطة عادت مرة أخرى لأيدى العراقيين، العراق أصبح ذا سيادة وحرّا، ولكن السؤال المحورى هو ما إذا كان العراق سيتمكن من تحقيق الديمقراطية!

وفى قناة آى . تى . إن . كان كبير المراسلين چيمس ميتس يسب ويلعن الإرهابيين المتوحشين والمصممين - إنه يقصد المتمردين وليس التحالف - الذين كانوا يهددون العراق، الذى يتمتع بالسيادة الآن (نشرة أخبار آى . تى . ڤى المسائية، آى . تى . إن . ٢٨ يونيه ٢٠٠٤م) . فى نشرة أخبار القناة ٤ ، ذكر چون سنو أن تلك اللحظة كانت مصيرية فى حرب بوش وبلير على الإرهاب (القناة ٤ نشرة الأخبار، ٢٨ يونيه ٢٠٠٤م) . ببساطة لماذا استمر الوضع على هذا النحو، حين أصبح كل فرد الآن يعلم أن العراق لا صلة له بأحداث ١١ سبتمبر، وأنه لا يملك أسلحة دمار شامل، وأنه لا صلة له بتنظيم القاعدة؟! لم يقدم أحد تفسيراً .

على الأقل حاولت القناة الرابعة التعبير عن بعض الشكوك . ذكر المحرر الدولى لندسى هيلسوم أن الاحتلال قد انتهى، على الأقل رمزيا، وذلك إشارة من سنو إلى الحكومة الجديدة ذات السيادة المزعومة . ذكر مراسل الأخبار الخارجية چوناثان ميلر : انتهى الاحتلال - على الأقل هذا هو ما عرضه [بوش وبلير] أمام أنظار العالم (المرجع السابق) .

إن مراسل واشنطن فى القناة ٤ چوناثان روجمان فاق كل التقارير فى قلب الحقائق بطريقة الكوميديا السوداء بتعليقه الذى ذكر فيه «إلا إذا لم يصنع العراق أى شكل من أشكال الحكومة الديمقراطية، فلن يتوقع أحد مزيداً من التدخلات الأمريكية من جانب واحد، فى أى مكان آخر وفى أى وقت» . هل نضحك أم نبكى؟ فلتساعد السماء أى حكومة عراقية تحاول تحقيق ديمقراطية حقيقية فى العراق - ستوصم بأنها دولة مارقة، مما يعد هدفًا رئيسيّا لتدخل أمريكى من طرف واحد .

عرضت الميديا طوال اليوم أحداث الحكومة كما لو كانت حقيقة واقعة ـ كأن هناك حقا انتقالاً للسلطة؛ العراق «مستقل»، ذو سيادة وحر. الذى بدا فائق الغرابة أن مجموعة ضخمة من الصحفيين كانت راغبة فى عدم الحكم على الأمور بصورة صائبة، من أجل تعزيز هذا الجدل الواضح الغرابة. كتب پول كروجمان الصحفى فى صحيفة نيويورك تايمز الأبعد عن أن تكون راديكالية: «وصل الاحتلال الرسمى للعراق إلى نهاية مشينة أمس.. فى الواقع، سوف يستمر الاحتلال تحت اسم آخر، الأكثر احتمالا حتى تطلب الجماهير العراقية المعادية منا أن نرحل» (كروجمان، من أضاع العراق؟ نيويورك تايمز، ٢٩ يونيه، ٢٠٠٤م). هذا الاعتراف بالحقيقة الواضحة كان بعيدا عن تخيل البرامج الإخبارية فى بى. بى. سى. وآى. تى. إن. فى ٢٨ يونيه، أو فيما بعد. وكما كتب روبرت فيسك فى الإندپندنت «إن أليس فى بلد العجائب كان لا يمكنها الاستفادة من ذلك. إن النظارة تعكس الطريق الكامل من بغداد لواشنطن». ثم أضاف: «إن الذين يضعون منا أقواسًا حول كلمة «تحرير» فى ٢٠٠٣م، يجب أن يضعوا حاليا أقواسًا حول «سيادة». إن القيام بهذا الأمر أصبح جزءا من عمل التقارير عن الشرق الأوسط (تسليم السلطة: استعادة سيادة العراق ـ أو أليس فى بلاد العجائب؟ الإندپندنت، ٢٩ يونيه، ٢٠٠٤م).

وللأسف، كما يحدث عادة، فإن محررى فيسك قدموا نقطة مضادة ساخرة إلى حد ما لأمانته فى العرض فى نفس اليوم، مصرين على أن «الوزراء الجدد يحكمون بالشكل الذى يرونه مناسبا. وأدنى إشارة إلى أنهم دمى لقوى الاحتلال السابقة ستؤكد الشكوك من أن الاحتلال لن ينتهى، وذلك سوف يشعل المقاومة» (الافتتاحية: العنف ينتهى فى العراق فقط إذا حدث تحول حقيقى للسيادة، الإندپندنت، ٢٩ يونيه، ٢٠٠٤م). أدنى إشارة؟ ربما كان ذلك ممكنا على يد ربع مليون من القوات الأجنبية المسلحة التى تتحرك بلا ضوابط خلف حكومة عراقية تختارها القوة الفائقة، التى هى أيضا بعيدة عن سيطرة الشعب العراقى.

فى الواقع، ليس للحكومة العراقية المؤقتة سلطة حتى فى أن تضع القوانين أو تغير قوانين فرضتها قوات «التحالف». ويتضمن ذلك قوانين تخول للولايات المتحدة والمتعاقدين المدنيين الأجانب حصانة قانونية طالما كانوا يعملون فى العراق. قام رئيس

قوات التحالف پول بريمر قبل أن يرحل، بإجراء تعيينات لمدة خمس سنوات ـ ورئيس الوزراء المؤقت إياد علاوى اختار أفراد الأمن الوطنى ورؤساء جهاز المخابرات وسوف يستمرون فى مناصبهم لمدة خمس سنوات، عمل علاوى لمدد طويلة فى فرقة المخابرات البريطانية MI6، وفى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA، واثنتى عشرة وكالة مخابرات أخرى، وبالضرورة فإن حكومة العراق لا سلطان لها على ١٤٠,٠٠٠ جندى أمريكى و ٢٠,٠٠٠ من جنود القوات الأخرى التى تحتل العراق. كانت واشنطن تحدد بنود الميزانية ـ الأمريكيون هم من يقررون كيفية إنفاق مبلغ ١٨ بليون دولار أمريكى مدخر لإعادة الإعمار. علق الصحفى والمؤلف آدم هوتشيلد:

> إذا ما كان العراق فى طور التكوين ليس بدولة، فما هو؟ منذ نصف قرن مضى كنا نتحدث عن المستعمرات، والحماية، والخضوع للنفوذ، ولكن فى عالم مفترض أنه تخلص من الاستعمار، فإن المفردات أصبحت عديمة القدرة على التعبير. نحن نفتقر إلى كلمة تعبر عن دولة معظم السلطة الفعلية فيها فى يد آخرين، هل يعد ذلك شكلا من أشكال الميليشيات المحلية، أو جيوش أخرى للدولة، أو كليهما. دولة زائفة، ربما. من أفغانستان إلى السلطة الفلسطينية، ومن البوسنة إلى الكونغو، تنتشر الدول الزائفة حاليا حول كوكب الأرض. بل إن بعضًا منها سوف تتبادل السفراء مع العراق (ميلاد دول زائفة. شبكة زد، ٢٧ يونيه، ٢٠٠٤م).

استيلاد الديمقراطية، وإعادة استيلادها ـ قصة انتخابين

فى نشرة أخبار الظهيرة على بى. بى. سى. فى ٢٣ فبراير، أصدر كليف ميرى تقريرا عن خطاب بوش عن حالة الأمة لعام ٢٠٠٥م. رتب بوش لحضور امرأة أمريكية قتل ابنها فى العراق وهى تحتضن امرأة عراقية قتل صدام حسين زوجها. قبل بث الحدث على شبكة التليفزيون الوطنية، علق ميرى: امرأة تتخلى عن ابنها كى تحرر ابن امرأة أخرى (أخبار بى. بى. سى. الساعة ١٣، بى. بى. سى. ١، ٢٣ فبراير، ٢٠٠٥م). هذا هو كل ما حدث بعد الكشف عن عدم وجود تهديد من أسلحة دمار شامل تمثل تهديدًا، فى العراق، وحول عدم وجود علاقة مع تنظيم القاعدة، وعن عدم وجود إبادة جماعية فى عراق ما قبل الحرب!

فى نشرة أخبار آخر الليل فى بى . بى . سى . أصر مات فراى على أن الأمريكيين حريصون على مغادرة العراق بأسرع ما يمكن . لماذا؟ لأن قادة الولايات المتحدة لا يرغبون فى إطالة بقاء قواتها بالخارج (أخبار بى . بى . سى . فى العاشرة، بى . بى . سى . ١ ، ٣١ يناير، ٢٠٠٥م) . هل هناك ضرورة للتعليق؟

وفى تنافس لإلقاء تعليق أكثر إثارة فى قناة التليفزيون الوطنية، وصف محرر الشئون العالمية فى بى . بى . سى - چون سمپسون - المتمردين العراقيين بأنهم معادون لما يعتبرونه احتلالا أجنبيا لبلادهم (پانوراما - سمپسون فى العراق، بى . بى . سى ١ ، ٣٠ يناير، ٢٠٠٥م) . تخيل سمپسون وهو يشير فى ١٩٤٣م إلى ما يعتبره الثوار الفرنسيون بمثابة احتلال أجنبى لبلدهم .

فى مجتمع عاقل لا بد من أن ننظر إلى الاتجاه الصحفى الرئيسى المتشدد على أنه مضحك منفصل عن الواقع، وأنه يُشار إليه على أنه حالة نموذجية فى دراسة قدرة البشر على خداع أنفسهم لمصالحهم الخاصة . إن ما يعتبر حاليًا ميديا بديلة، أطلقوا عليها - خطأ - الميديا الراديكالية، لكنها فى الواقع الميديا العقلانية، التى تضرب جذورها فى الحكم الصائب والفطرة السليمة، فى التعاطف الصادق وليس الادعاء بمعاناة البشر، وفى الرغبة فى حل المشكلات، وليس التربح منها .

اشترك صحفيو الولايات المتحدة وبريطانيا فى وصف انتخابات ٣٠ يناير ٢٠٠٥م فى العراق بأنها «ديمقراطية»، و «حرة» . أعلنت صحيفة لوس أنچليس تايمز : «إن العالم يمكنه بأمانة أن يشهد القوات الأمريكية وقد استطاعت أن تجعل شعبًا طال قمعه يختار مصيره» (الافتتاحية، الشجاعة فى ظل إطلاق النيران، لوس أنچليس تايمز، ٣١ يناير ٢٠٠٥م) . هللت التايمز (اللندنية) للنجاح المدوى لأول انتخابات ديمقراطية عراقية على مدى نصف قرن فى آخر مشهد مذهل يدل على قوة الديمقراطية (الافتتاحية، قوة الديمقراطية، التايمز، ١ فبراير، ٢٠٠٥م) .

كان التناغم فى إعلان هذه الدعاية عن الأحداث سمة سائدة فى قرابة مائة فى المائة - من صحف وميديا بريطانيا والولايات المتحدة . كانت الميديا مجمعة - على سبيل المثال على الإعلان الفورى عن ارتفاع نسبة المشاركة فى التصويت . ذكرت بى . بى . سى . : مشاركة مرتفعة للغاية فى انتخابات اليوم، والذى كان النتيجة الأكيدة التى تطلعت إليها

الولايات المتحدة للعراقيين (بى . بى . سى . ٣٠ يناير ٢٠٠٥م، ميتشيل شو سودوفسكى، الانتخابات العراقية : عدم إبلاغ الميديا عن نقطة التحول العظمى فى التصويت . بحث عالمى، ٣١ يناير ٢٠٠٥م، <http://globalresearch.ca/aticles>) .

بتجاوز هذا الإجماع فى الآراء داخل الاتجاه الصحفى السائد، نعرف أن الانتخاب لا يعد قانونيا عندما يتم فى ظل احتلال عسكرى أجنبى، وعندما تجريه حكومة ألعوبة فى يد الاحتلال . بعد كل شىء، فإن العراقيين أقدموا على الإدلاء بأصواتهم يداخلهم الأمل فى إنهاء الاحتلال الأمريكى ـ البريطانى فى يناير ٢٠٠٥م، أفادت نتائج استفتاء سابق للانتخابات فى نيويورك تايمز أن ٦٩ فى المائة من الشيعة العراقيين و ٨٢ فى المائة من السنة يرغبون فى تحديد موعد قريب لانسحاب القوات الأمريكية . إلا أن بلير، ورايس، وآخرين، كانوا واضحين فى رفض تحديد أى جدول زمنى للانسحاب . لخص ناعوم تشومسكى تفكير واشنطن ولندن :

> أوه، حسنا، وهو كذلك، سوف نتركهم يعينون حكومة، لكننا لن نلقى بالاً لكل ما يقولونه : أعلن البنتاجون فى واقع الأمر . . . منذ يومين : سوف نحتفظ بوجود ما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ من القوات هناك إلى عام ٢٠٠٧م على الأقل، حتى إذا ما طالبونا بالانسحاب غدا . (بعد الانتخاب ـ مستقبل العراق والاحتلال الأمريكى، ٢ فبراير ٢٠٠٥م .
>
> (<www.counterpunch.org/chomsky02022005html>

من الواضح أيضا أن الولايات المتحدة تتلاعب فى القوانين لتأكيد أن الأكراد أصدقاء الولايات المتحدة حصلوا على ٢٧ فى المائة من مقاعد المجلس الوطنى، رغم أنهم يمثلون فقط ١٥ فى المائة من السكان . فى تحول نادر عن دعاية الاتجاه الصحفى السائد، علق ناعوم تشومسكى فى الجارديان :

لىّ الحقائق : إن الولايات المتحدة ألفت دستوراً مؤقتًا ينص على أن كل القرارات الهامة لا بد أن يوافق عليها ثلثا الأعضاء، وفى بعض الحالات ثلاثة أرباع أعضاء المجلس ـ وهو رقم مرتفع بسخافة، ويعطى الأكراد حق إيقاف أى طلب بانسحاب القوات الأجنبية، وأى محاولة لدحض أوامر بريمر الاقتصادية، أو أى حركة نحو دستور جديد . (العلامة المسجلة للولايات المتحدة فى مشكلة، ولتأخذ الدرس من بيج ماك، الجارديان، ١٤ مارس، ٢٠٠٥م) .

لاحظ رالف نادر أن پول بريمر وضع قواعد تتيح تملكًا كثيفًا للأجانب ومسيطرًا على مجالات الأعمال العراقية ـ ضرائب منخفضة على الشركات، قواعد حمائية ضد إقامة دعاوى قضائية، وعدم السماح للعمال بتكوين نقابات مهنية (هل نهاية حرب العراق ـ واحتلالها قريب؟ ٣٠ مارس ٢٠٠٥م <www.zmag.org>). علق فيليس بينيس من معهد الدراسات السياسية:

الانتخابات غير قانونية إذا ما أجريت فى ظل احتلال عسكرى أجنبى، وعندما تقوم حكومة ألعوبة بحكم البلاد اسميا فقط، وتقوم بإجراء الانتخابات، حكومة عينتها وأبقتها فى مكانها جيوش احتلال، والانتخاب فى قبضة جيش الاحتلال؛ عندما تكون الحرب محتدمة للغاية بحيث تمنع مشاركة معظم السكان؛ وحينما يتم تصميم الانتخابات لاختيار مجلس جديد لوضع مسودة دستور واختيار حكومة، فإنها سوف تظل تعمل فى ظل احتلال عسكرى (انتخابات العراق، معهد الدراسات السياسية، ٢٠ ديسمبر <www.tni.org/archives/bennis/points27htm>).

مع الدعاية عمت الفوضى، حيث فقد الشعب حماسه، حاولت نيويورك تايمز أن تُلَمِّح بالحقيقة: «الانتخابات فى يناير، ورغم أنها كانت عملا بطوليّا، إلا أنها ليست كافية كى تجعل العراق يمارس الديمقراطية، أو حتى يؤكد مستقبله كدولة موحدة» (الافتتاحية، اختيار رئيس وزراء العراق، نيويورك تايمز، ٢٣ فبراير، ٢٠٠٥م).

ولنتأمل على النقيض استجابة الميديا لانتخابات ٢٠٠٥م فى زيمبابوى، التى أجراها أحد أعداء الغرب الرسميين روبرت موجابى. فى هذه الحالة استعادت الميديا قدراتها العقلية، وكانت قادرة على تعريف تدفق العملية الانتخابية.

فى مقال لافتتاحية الجارديان بعنوان: سرقة الديمقراطية: تخويف، وتلاعب فى تقسيم الدوائر الانتخابية، واستخدام إعانات المجاعة كسلاح، هى بعض من كثير من أوجه الفساد التى تم توثيقها حتى الآن، فى انتخابات تبدو مزيفة للغاية (الافتتاحية، سرقة الديمقراطية، الجارديان، ٢٩ مارس، ٢٠٠٥م). أعلن المحررون أنفسهم عن عملية الانتخاب فى العراق «أول انتخابات حرة فى البلاد على مدى عقود، انتخابات تعد علامة طريق، والتى تمثل ـ بشكل ما ـ لحظة عظيمة» (الافتتاحية، الاقتراع ضد

العنف، الجارديان، ٧ يناير، ٢٠٠٥م. الافتتاحية، على الحدود، الجارديان، ٢٩ يناير، ٢٠٠٥م). لم يطرح أى تساؤل عن تدمير الأمريكيين لثالث مدن العراق، الفالوجا، فى الأسابيع السابقة، وبالفعل قتل ١٠٠,٠٠٠ عراقى على مدى العامين السابقين، والذى يضاف لانتهاك شرعية الانتخابات. على العكس: لقد كانت فى صالح الجميع ـ العراقيين، والعرب، والولايات المتحدة وبريطانيا ـ أمر يعوض العراق وينقذها من الوضع الذى كانت فيه منبوذة من الجميع (المرجع السابق).

تساءل محررو الإندبندنت إذا ما كانت انتخابات زيمبابوى تعد حرة وعادلة: الإجابة بكل تأكيد لا (الافتتاحية، تم تحطيم زيمباوى على يد السيد موجابى ـ وهذه الانتخابات ستؤدى بالأمور إلى الأسوأ، الإندبندنت، ٣١ مارس ٢٠٠٥م). أما عن انتخابات العراق:

> سواء أكان من شارك فى تلك الانتخابات هم فقط ٥٠، ٦٠، أو أكثر من ٧٠ فى المائة من المسجلين فى قوائم الانتخاب العراقية، فإن عددا كافيا غامر بالمشى إلى مراكز الاقتراع ليقوم بأول محاولة فى انتخابات حرة على مدى نصف قرن؛ مما يعد تدريبا جديرا بالثقة على الديمقراطية. (الافتتاحية، الانتخابات تزرع الأمل فى الديمقراطية، لكنها لا تبرر حربا مضللة، الإندبندنت، ٣١ يناير ٢٠٠٥م).

لا توجد مشكلة إذن فى أن الانتخابات، والميديا، والدولة كلها، تدار بجيش للقوة العظمى التى غزت البلاد بطريقة غير مشروعة. ولكن لماذا نهتم إذا كان من يقوم بالغزو رجال طيبون؟

كتبت الديلى تلجراف عن زيمبابوى:

> جرى الانتخاب فى صالح السيد موجابى وحده. قام أصدقاؤه الحميمون بتسيير العملية على جميع المستويات، وامتلأت جداول الانتخاب بأسماء ما لا يقل عن مليون شخص متوفى. وهذا يعطى للنظام كل الصلاحية للتلاعب بمصير الشعب (داڤيد بلير، الانتخابات، أكثر عملية انتخابات حرية وعدالة فى العالم، حسب قول موجابى، الديلى تلجراف، ١ أپريل، ٢٠٠٥م).

في مقال افتتاحي بعنوان الحملة أنجزت أهدافها، قرر المحررون ببساطة أن العراقيين يستعدون لأول انتخابات ديمقراطية في بلدهم (الافتتاحية، الحملة أنجزت أهدافها، الديلي تلجراف في ٦ ديسمبر ٢٠٠٤م).

كتبت الإكسبريس: «قليل من المراقبين يعتقدون أن الانتخابات البرلمانية في زيمبابوي سوف تكون حرة أو عادلة» (مارك بلاك لوك، هل هو أكثر قادة العالم شراً ومكروهية؟ الإكسبريس، ٣١ مارس، ٢٠٠٥م). وعن انتخابات العراق: «تدفقت الأنباء عن الأوضاع المتردية في العراق منذ الغزو؛ أمس فقط لا بد أننا مررنا بلحظة من البشْر. الآن هناك فرصة حقيقية أمام العراق كي يؤسس نفسه كدولة ديمقراطية». (الافتتاحية، أمل الانتخابات في العراق، الإكسبريس ٣١ يناير ٢٠٠٥م).

في مقال بعنوان أصوات الأشباح في زيمبابوي: موجابي يتلاعب في الأصوات، حاولت بي. بي. سي. ذكر المشكلات مع الصحافة الحرة. إن رينالد ما تشابا ـ هوف، رئيس شبكة مراقبة الانتخابات في زيمبابوي، أخبر برنامج أضواء على إفريقيا في بي. بي. سي. أن عملية التصويت كانت سلسة: لكنه قال «إن الأجواء تغيرت في الأسابيع القليلة الماضية، عندما بدأ المراقبون الأجانب في الوصول؛ لأنه فيما مضى لم يكن أمام المعارضة فرص كبيرة في الوصول إلى الميديا ولم تكن أمامها حرية في التجمع» (مارك إليس، أصوات الأشباح في زيمبابوي، أصوات الاقتراع على موجابي، ١ أبريل، ٢٠٠٥م، <http://news.bbc.co.uk>). كان الأمر بالنسبة لنا على وجه الخصوص مثيراً للغاية حيث لم نقرأ أو نسمع عن أي مشكلة خاصة بحرية الصحافة في أثناء الانتخابات العراقية.

وفي أماكن أخرى، لاحظ توماس كاروثرز، مدير برنامج أوقاف مؤسسة كارنيجي للقانون والديمقراطية، وجود خط قوي متواصل في الولايات المتحدة لتعزيز الديمقراطية في فترة ما بعد الحرب الباردة. يعرّف كاروثرز المبدأ المرشد لذلك: «حيثما تكون الديمقراطية متمشية تماما مع أمن الولايات المتحدة ومصالحها الاقتصادية، فإنها تعزز الديمقراطية. عندما تصطدم الديمقراطية مع مصالح ذات مغزى، فإنه يتم الحط من قدرها، بل وتجاهلها». (ناعوم تشومسكي، تعزيز الديمقراطية في الشرق الأوسط،

الخليج تايمز، ٦ مارس، ٢٠٠٥م). إن أى فرد لديه لمحة من البصيرة والإنسانية لا بد أنه أدرك أن العبارة الثانية تنطبق تمامًا على العراق.

للأسف يوجد كذلك خط متواصل من الاستمرارية فى تقارير الميديا. عندما تتصارع الفطرة السليمة المبدئية مع احتياجات النخبة الحاكمة، تغرق الصحافة فى اتفاق جماعى أصم. وحينما تكون الفطرة السليمة والتفكير النقدى فى خدمة السلطة، تستعيد عافيتها، ثم فجأة تبرز موضوعات مثل القانون الدولى، وحرية الصحافة، وأثر العنف، وكلها وثيقة الصلة بموضوع شرعية الانتخابات.

إنه يريد الديمقراطية- عدسات الميديا، وپيتر بارون محرر أخبار المساء فى بى. بى. سى.

فى ١٢ أبريل ٢٠٠٥م فى برنامج نشرة أخبار المساء، ناقش المحرر الديپلوماسى مارك أوربان مغزى التقليل من حجم هجمات العراقيين على القوات الأمريكية منذ يناير: «إن ذلك أول دليل حقيقى على أن تخطيط الرئيس بوش لإسقاط الطاغية وتنفيذ الديمقراطية بالقوة فى قلب الشرق الأوسط يمكن أن ينجح» (أخبار المساء، بى. بى. سى. ٢، ١٢ أبريل ٢٠٠٥م). وقد تحدينا محرر نشرة أخبار المساء پيتر بارون:

> هل حقيقة يعد هذا التقرير متوازنا من شبكة مثل بى. بى. سى.؟ إننى متأكد أنك درست تاريخ سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة، والأهداف الحالية، والعيوب الهائلة فى انتخابات ٣٠ يناير. ومن السهل أن يتضح أن الديمقراطية الأصيلة هى آخر ما يخطر على ذهن بوش بشأن العراق. ألا يتحدث أوربان بلسان خطط بوش المزعومة، أو المدعية عن الديمقراطية فى الشرق الأوسط؟ أليس من الأفضل إحداث بعض التوازن؟ (داڤيد إدواردز إلى بارون، ١٢ أبريل ٢٠٠٥م).

أجاب بارون:

> أعتقد أن ذلك تقرير صادق تماما، لقد أصدرنا عددا ضخما من التقارير حول كل الوفيات، والتدمير، والفساد، كان بيان مارك تلك الليلة مليئا

بالتحذيرات والإيحاءات حول احتمال أن تسير الأمور إلى الأسوأ، لكن من المؤكد أننا نشهد حاليا لمحة من الشواهد على أن خطة بوش قد تستطيع العمل، هذا كل ما قاله. (رسالة إليكترونية لعدسات الميديا، ٢ أبريل ٢٠٠٥م)

أعدنا الكتابة:

شكرًا لتوضيحك، الذى أنظر إليه بعين التقدير. كل ما أعارضه هو الادعاء بأن خطة بوش فى العراق كانت من أجل الديمقراطية كما ادعى أوربان. أوافق على أن الأمور قد تسير فى مسار جيد أو خاطئ وفقا لوجهة نظر بوش، لكن التوازن يتطلب تفنيد فكرة أن الديمقراطية هى الهدف. إن هذا القول لا ينطق بالحقيقة، لكنه بالأحرى ادعاء هام للغاية، ومثير للخلاف. ببساطة، لا يعد إيراد مثل هذا القول على لسان مراسل نظامى فى أخبار المساء توازنا، حين يزعم أن هدف بوش المفضل هو الديمقراطية. إذا لم يزعم أوربان أن الديمقراطية هى هدف أمريكا فى العراق، لما كان قوله يثير الاضطراب (من إدواردز إلى بارون، ١٣ أبريل، ٢٠٠٥م).

أجاب بارون فى يوم تال:

داڤيد ـ فى نقطتك حول إذا ما كان بوش يهدف حقيقة إلى الديمقراطية يمكننى القول: بينما لا توجد حدود حول مناقشة نوع الديمقراطية التى تتمناها الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، فلا شك أبدا فى أن الرئيس بوش يعتبر أن هدف السياسة الخارجية الأمريكية هو زرع ما يراه هو ديمقراطية، ذلك واضح تماما من أفعاله، من تحركه بسلاسة تجاه الانتخابات فى بلاد أسقط فيها نظم الحكم السابقة (أفغانستان والعراق) وكل ذلك واضح من كلماته. لقد لجأ إلى الضغوط الدبلوماسية للإصرار على إجراء انتخابات فى الأراضى الفلسطينية المحتلة. بدأ حلفاء تقليديون مثل مصر والسعودية تجاربهما الديمقراطية، فى جانب منها استجابة للبيانات الكثيرة للرئيس من أنه لن يستطيع إدارة الأمور بنفس ما كان عليه الوضع قبل ١١ سبتمبر، والتغير الذى حدث فى السياسة الأمريكية الخارجية. لقد اعترف بهذه

الحقائق فى خطابه فى لندن فى ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٣م: «نحن الآن نتبع مسارا مختلفا، إستراتيچية مستقبلية حول الحرية فى الشرق الأوسط. سوف نقف دائما فى وجه أعداء الإصلاح، ونواجه حلفاء الإرهاب، نتوقع مستويات أعلى من أصدقائنا فى المنطقة، وسوف نفى بمسئولياتنا فى أفغانستان والعراق بإكمال عملية الديمقراطية التى بدأناها».

أتفق معك تمامًا أن لديه دون شك دوافع أخرى كذلك، لكننى أرى أنه من غير الصواب أن تدحض افتراض أنه يريد الديمقراطية فى العراق.

بيتر (رسالة إليكترونية إلى إدواردز، ١٤ أبريل، ٢٠٠٥م).

ولنقارن إجابة بارون مع رسالة أرسلتها منذ شهور قليلة مديرة أخبار بى. بى. سى. هيلين بوادن:

تعد انتخابات العراق أول انتخابات ديمقراطية فى العراق على مدى ٥٠ عامًا ـ واعتُرف بها كفرصة للديمقراطية. نحن نعلم أن الأمريكيين والبريطانيين يريدون أن تكون الانتخابات حرة وعادلة ـ لكننا بالطبع لا نعرف بعد أن الأوضاع ستكون على هذا النحو ـ خاصة إذا ما وضعنا فى أذهاننا قضية الأمن. لكن هدفنا تقديم تغطية نزيهة، وعادلة، ودقيقة، تعكس أنواعًا من المناقشات ذات المغزى، كى يستطيع الناس الوصول إلى قراراتهم هم (قدمت لعدسات الميديا فى ٢١ يناير ٢٠٠٥م).

إن ذلك يعد إذعانا مذهلا من بى. بى. سى. التى جعلت من المسلمات أن هدف القوى العظمى فى العالم جلب ديمقراطية حقيقية إلى الشرق الأوسط. أرسلنا رسالة بارون الإليكترونية إلى ناعوم تشومسكى الذى علق قائلاً:

منذ تلقى بوش «رؤيته» من الخالق من أن رسالته أن يجلب الديمقراطية للشرق الأوسط ـ بعد انهيار ذرائع الغزو. . . أتتبع تعليقات المثقفين وتقارير الميديا. باستثناء بعض المقالات التى تقترب من القبول، والعلماء الجادين (وعَرَضيّا، افتتاحية الفايننشيال تايمز بعد انتخابات العراق) تراوحت حوالى ١٠٠٪ من التقارير بين النشوة من نبل الرئيس، إلى الانتقادات التى تعترف

بأن المهمة حقيقة نبيلة وكريمة، ولكن ربما تتجاوز إمكانياتنا . . . ربما بسبب تخلف المستفيدين منا [العراق والدول العربية فى الشرق الأوسط] . . . إلى آخره، راجعت بعضًا منها بعد كتابى الذى صدر بعنوان : «السيطرة أم البقاء»، وقمت بتحديث ذلك فى أحاديث ومقالات .

بالطبع، فإن الشواهد المضادة كثيرة للغاية حتى الآن . لكنها غير موائمة . لقد تكلم القائد العزيز .

المبدأ واضح للغاية : لا بد أن نحاكى كوريا الشمالية بكل إمكانياتنا . إن ذلك معيار سائد فى ثقافة المفكرين .

ليس من العدل أن نتعامل بدون لطف مع بيتر عن ذلك . إنه يعمل وفق المعيار فحسب . لا شك أنه أضفى عليه صفاته الذاتية .

ناعوم (رسالة إليكترونية لعدسات الميديا، ١٤ أبريل، ٢٠٠٥م) .

* * *



الفصل الخامس

أفغانستان

دعهم يأكلون الحشائش



تطبيع الكوارث غير الطبيعية

كتب محلل الميديا الأمريكى إدوارد هيرمان ذات مرة: ما يحدث هو عبارة عن عملية دفاع يقوم بها المثقفون وخبراء آخرون وميديا الاتجاه السائد، لتطبيع الأحداث التى لا يمكن تصديقها لدى الجماهير العريضة (محو الشر <www.informafionclearinghouse.info/article7278.htm>). يتم تطبيع الأحداث التى من هذا النوع بالمرور مر الكرام على أعتى جرائم الدول ذات النفوذ، وإبعاد الشكوك عن حقيقة بشاعة هذه الجرائم، وأحيانا ـ وهو مسار قد يكون له أسوأ النتائج ـ الزعم بأن الغاية تبرر الوسيلة، وكذلك يتم هذا التطبيع بتضخيم جرائم الأعداء الرسميين ووضعها تحت المجهر.

تكمن تحت هذا التحريف المضلل حقيقة أساسية مؤداها: أن معاناة الفقراء ذوى الجلود السمراء من شعوب العالم الثالث لا تعنى صحفيى مؤسسات النخبة إلا بالكاد. وعلاوة على ذلك ـ وكما أوضحنا فى الفصل الأول ـ فإن معاناة العالم الثالث لا تعنى الكثير، وإن نجاح مؤسسات الميديا يعتمد على العلاقات الإيجابية مع المراكز الضخمة ذات النفوذ الاقتصادى والسياسى. مثلهم مثل مديرى المؤسسات التنفيذيين، فإن الصحفيين ملتزمون قانونا بجعل هذه الاعتبارات، وفن نجاح الاتجاه السائد فى الصحافة، يتمثل فى القيام بذلك دون ملاحظة الجمهور.

كانت حرب أفغانستان لقطاع كبير من الميديا قد انتهت بسقوط كابول فى ١٣ نوفمبر ٢٠٠١م، وكالعادة، ركزت التقارير على الجرائم الخفية للآخرين، وعلى ضرورة أن ندمر طالبان وتنظيم القاعدة. مع تنفيذ الهدف (جزئيًا)، يعلن الصحفيون نصرا إنسانيًا آخر، ويتحركون تجاه أمور أخرى. فجأة تصبح الحرب هى النبأ الأساسى فى الأخبار، ولا شىء عما سوف تؤدى إليه من ضحايا مدنيين جراء عمليات القصف. قصة مختلفة

ـ ثمن انتصارنا من أجل شعب أفغانستان ـ تهدد بإلقاء الضوء على جرائمنا، وهكذا تجاهلتها الميديا عندنا. إن المنهج الذى استخدمناه فى طمس الحقائق كان ملحوظا تماما.

لا يفوت القارئ الذكى للصحافة اكتشاف أن ضحايا القصف الذى بدأ فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١م قد فاق خسائر الأرواح فى ١١ سپتمبر ٢٠٠١م. لكن هذه النتائج الجانبية لا تمثل إلا جزءًا ضئيلاً من التدمير.

صدرت الصحف فى ١٦ سپتمبر بخبر مؤداه أن حكومة الولايات المتحدة أمرت بأن تتوقف پاكستان عن نقل الغذاء لأهالى أفغانستان المتضورين جوعًا والمعتمدين على هذه المعونات كلية. فيما بعد وفى نفس الشهر، حذرت منظمة الأمم المتحدة للغذاء والزراعة من أن أكثر من ٧ ملايين شخص يواجهون كارثة سوف تؤدى إلى تفشى الموت جوعا إذا ما بدأت العمليات العسكرية، مع احتمال كارثة إنسانية إذا لم تُستأنف المعونات ـ وعلى الفور ـ وتتوقف تهديدات العمليات العسكرية. حذر دومينيك نوت من منظمة المعونة المسيحية: الأمر يبدو كما لو أن مقبرة جماعية تم حفرها وراء ملايين من البشر. يمكننا أن نخرجهم منها أو نحشرهم فيها. بذلك يمكننا توقع ملايين من حالات الوفاة (ستيفن موريس، وفيليستى لورانس، **أفغانستان تواجه كارثة إنسانية**، الجارديان، ١٩ سپتمبر ٢٠٠١م).

تخيل تحالفًا غربيّا يبدأ هجومًا لاقتلاع جذور الإرهاب من ـ ولْنَقُل ـ إسپانيا، مع العلم بأن حوالى ٧ ملايين مدنى إسپانى قد يفقدون حياتهم نتيجة لذلك.

الجدير بالذكر أنه رغم إطلاق الميديا لهذه التحذيرات عن الموت الجماعى، فإن القصة تم إغفالها ببساطة. تُرى كم سيبلغ عدد الموتى حين يبدأ تساقط الجليد؟ كم من الملايين السبعة سيتم دفنهم فى مقبرة جماعية؟ بالتأكيد أن حكومتنا ـ منفذة الحملة الصليبية الأخلاقية على كوسوڤو ـ لم تهتم من قريب أو بعيد بمثل هذه التساؤلات. ولكن مصير ملايين الأبرياء بسبب سياسة أمريكا والمملكة المتحدة لا تعد مسألة تدعو للأهمية فى نظر الميديا عندنا. يمكن أن نستشعر بعض جوانب الضجة الأخلاقية لديمقراطيتنا من الحد الأدنى للتغطية التى ظهرت.

فى تحذيرات الميديا بتاريخ ٣ يناير ٢٠٠٢م، وصفنا الأحوال فى معسكر اللاجئين فى مسلخ غرب حيرات فى أفغانستان، حيث يلقى ١٠٠ شخص حتفهم يوميا. ولما

كان المعسكر يضم ٣٥٠,٠٠٠ نسمة، فمن المؤكد أنه أكبر معسكر للاجئين فى العالم. قبل أربعة أشهر، وفى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١م، رصدت الجارديان وفاة ٤٠ شخصًا يوميًا فى معسكر المسلخ، بسبب أن الكثيرين وصلوا إلى المعسكر وهم فى حالة متردية بالفعل، بعد أن حاولوا كثيرًا البقاء فى قراهم.

حيث إن معدل الوفيات ارتفع من ٤٠ يوميًا قبل القصف بالقنابل إلى ١٠٠ يوميًا بعد بدء الهجوم، يبدو واضحا للغاية أن أفعال حكومتنا أدت إلى حشر آلاف فى مقبرة جماعية. ومع ذلك، وعلى وجه الدقة لأن ذلك كان هو الأمر الواقع بالفعل، لم يكن لدى الميديا الكثير لتقوله حول معاناة المدنيين وحول المسلخ.

ظهرت تقارير عرضية. ففى يناير ٢٠٠٢م، وصف دوج ماكنلى الصحفى فى الجارديان كيف تحدث الوفاة بين اللاجئين بسبب تعرضهم للقصف والجوع فى المسلخ. إن حجم المقابر الصغيرة فى ناحية المدافن على حدود المعسكر يعد دليلاً واضحا على أن معظم من دفنوا من الأطفال، كما لاحظ ماكنلى. تم الاستشهاد بأقوال إيان ليثبريدج ـ المدير التنفيذى للمنظمة الخيرية «أطعموا الأطفال» ـ حين قال: دائما ما أحكم على كل شىء بما رأيته من مآس فى إفريقيا. وهذا يماثل ما رأيته هناك، فقد أصبت بالصدمة للأحوال المتردية للقادمين الجدد (ماكنلى، **تُرك اللاجئون فى البرد فى معسكر المسلخ**، الجارديان، ١ يناير، ٢٠٠٢م). أقر ماكنلى أن شيئًا من المعونة تقريبًا لا يصل إلى المسلخ. عملت منظمة «أطعموا الأطفال» على توصيل ٤٠ طنًا من الغذاء والكساء إلى حيرات الأسبوع الماضى، ولكن فى ذلك الوقت كان مجرد ٤ مخابز تقوم بإطعام المعسكر بأكمله بأفراده البالغ عددهم ٣٥٠,٠٠٠. واجهت سيدة من المعسكر ماكنلى: إنك تقوم بالتقاط صور، أنت لست هنا لتقديم مساعدة، لا يمكننا أكل الصور، نحن نموت، نحن فى حاجة إلى طعام ودواء. كانت الأحوال خارج المعسكر أكثر هولا. أصدرت منظمة المعونة المسيحية فى ٤ يناير تقريرًا:

> إن اللاجئين الذين يفدون إلى معسكر المسلخ بالقرب من حيرات وصفوا الظروف الفاجعة التى تعيش أسرهم فيها. أعاق سقوط الثلوج بكثافة توصيل الإمدادات الإنسانية لكثير من المناطق المنكوبة فى إقليم الغور الجبلى فى أفغانستان. . . (موقع منظمة المساعدة المسيحية، **الجوع يجبر العائلات على هجر المساكن الجبلية**، ٤ يناير ٢٠٠٢م).

حذرت حياة فاضل من منظمة المشروع النرويجي لمؤسسة إعادة تأهيل المناطق الريفية في أفغانستان ـ شريكة منظمة المعونة المسيحية ـ من أن القرى الريفية كانت مهملة، بينما يحصل معسكر للاجئين مثل معسكر المسلخ على نصيب الأسد من المعونة! (المرجع السابق).

لا بد أن القراء سيستعيدون الصور التليفزيونية عن آلاف من المدنيين وهم يهربون من الحرب والقصف بالقنابل في كوسوڤو في ١٩٩٩م. أعادت شبكتي آي. تي. إن.، وبي. بي. سي. مرارا بث مشاهد الصور المأساوية عن التلال المملوءة بلاجئين يائسين، يتعرضون يوميا للسؤال، والمقابلة الشخصية، والتصوير. كانت هناك تغطية مطولة وحساسة عن المعاناة الإنسانية المروعة.

وعلى العكس من ذلك، فإنه بين سبتمبر ٢٠٠١م ويناير ٢٠٠٢م، ذكرت الجارديان والأوبزرڤر كارثة المسلخ خمس مرات ـ بمتوسط مرة كل شهر. أظهر بحث أجرته قاعدة بيانات ليكسيس نيكسيس (مايو ٢٠٠٥م) أن مجموع ما ذكر بشأن المسلخ هو ٢١ مرة بين ٢٠٠١ و ٢٠٠٥م في جميع الصحف القومية في المملكة المتحدة.

ذكرت الجارديان والأوبزرڤر قصة سجناء معسكر خليج جوانتانامو ـ وهو موضوع محدود، مقارنة بمسئوليتنا عن الموت الجماعي للاجئين الأفغان ـ ٩٧ مرة في يناير ٢٠٠٢م فقط. وكانت أرقام قاعدة بيانات لكسيس نيكسيس عن خليج جوانتانامو بالحجم نفسه (أكثر من ١٠٠٠) في الفترة من مايو ٢٠٠٤م إلى مايو ٢٠٠٥م. وكذلك على النقيض، ذكرت الجارديان والأوبزرڤر بين أبريل ويونيو ١٩٩٩م مأساة اللاجئين في كوسوڤو على حدود مقدونيا مع كوسوڤو ٤٨ مرة ـ بمعدل مرة كل يومين. إلا أن حجم المعاناة وشدتها يتضاءلان بشدة مقارنة بما في أفغانستان.

والفرق الحيوي هو في الاتجاه الذي على أصابع الاتهام أن تشير إليه رغم أن مأساة كوسوڤو الإنسانية كانت رد فعل لحملة الناتو الجوية ـ قرر مراقبون محايدون، وحتى الإدارة الأمريكية أن الهجرة الجماعية والأعمال الوحشية المتزايدة، بدأت بعد بداية القصف ـ اختارت الميديا تصديق الادعاءات البريطانية والأمريكية بأن الإبادة الجماعية الصربية هي المسئولة. وكنتيجة لذلك ـ في أثناء أزمة كوسوڤو ـ فإن مأساة اللاجئين استخدمت كدعاية قوية لتبرير هجوم الناتو.

وفى أفغانستان ـ من ناحية أخرى ـ كان من الواضح أن الحرب ضد الإرهاب تتحمل مسئولية كبيرة فى منع المواد الغذائية، وما تلاه من معاناة جماعية وموت جماعى بداخل معسكرات الأفغان وخارجها. وفى تقرير للصنداى تلجراف، كتب كريستيان لامب عن لاجئى المسلخ:

جاء معظمهم من الأقاليم الشمالية: فارياب، وجهور، وسار ـ إى ـ پول، وكذلك غازنى فى وسط أفغانستان، والمناطق الجبلية، التى كان برنامج الغذاء العالمى يقدم لها المعونات الغذائية التى توقفت بسبب القصف. والآن لا يمكن الوصول إلى قراهم لانقطاع الممرات الموصلة إليها (**يطلقون على ذلك اسم «المسلخ»**، الصنداى تلجراف، ٩ ديسمبر، ٢٠٠١م).

فى واحدة من المقالات القليلة فى الأوبزرڤر عن هذا الموضوع، ذكرت سوزان جولدنبرج أن المسلخ أصبح بالفعل مأساة فى صيف ٢٠٠١م، ولكن نزلاءه تضخموا بعد ١١ سپتمبر عندما تم ترحيل العاملين فى برنامج المعونة الدولية من أ فغانستان خوفا من القصف (**الجوع والانتقام يفترس الأفغانيين المنتشرين فى خيام المدينة**، الأوبزرڤر، ٢٧ يناير، ٢٠٠٢م).

إن ذلك بالطبع إدانة دامغة للحكومتين الأمريكية والبريطانية على حربهما فى سبيل الحضارة، ولمؤسسات الميديا التى تدعمهما. ولذلك فإن السياسيين لم يعيروا هذه المأساة التفاتا، ومرة أخرى، شعرت الميديا بالسعادة فى أن تفعل المثل. ذكرت كاتبة العمود ناتاشا معسكر المسلخ فى الإندپندنت حين كتبت:

تعانى هذه الشعوب من الرعب الذى نزل عليهم من الغرب. نعم أعلم أنهم عانوا على مر السنوات الماضية من شرور حكامهم الأصوليين، لكننا الآن نشاركهم مسئولية مأساتهم. إذا لم يكن ما حدث بسبب صواريخ الغرب التى ألقيت فوق قندهار وقندوز، لما رأينا هؤلاء الأطفال الذين نطالع وجوههم فى صحفنا هائمين فى الشوارع بيأس، يجتازون بشق الأنفس التلال والصحارى، ويعيشون فى خيام فى العراء (**هؤلاء اللاجئون مسئوليتنا**، الإندپندنت، ٢٢ نوڤمبر، ٢٠٠١م).

بعيدًا عن هذه اللمحات، فإن مسئوليتنا عن المعاناة الجماعية والوفيات فى أفغانستان اختفت تحت ستار من الصمت واللامبالاة.

أعور فى بلاد العميان

عرفانا بالحق، فإن آى. تى. إن. قامت ببعض المحاولات لإظهار المأساة. ففى ٩، و١٣، و ٢٢، و ٢٦يناير، غطى مراسلوها قصة «مارچان الأسد الأعور» فى حديقة حيوانات كابول. مست صورة ضرب مارچان قلوب الناس حول العالم، هكذا أخبرت آى. تى. إن. مشاهديها فى الساعة ٩، ترمز مأساته إلى سوء المعاملة إبان حكم طالبان! كنتيجة، هرول فريق من الأطباء البيطريين لتقديم أقصى معونة مطلوبة. . . من العلاج والطعام (أخبار تليفزيون وقت الظهيرة، شبكة آى. تى. إن. فى ٩ يناير، ٢٠٠٢م). وصدر ڤيديو كليب نتيجة هذه الحملة، وهو يجسد ملامح مارچان وهو يلوك بسعادة قطعة كبيرة من اللحم.

وعلى المشاهدين قراءة التقارير النادرة للجارديان عن معاناة المدنيين ليكتشفوا ماذا يأكل الأفغان فى كل مكان من بلادهم ذلك اليوم نفسه: قرية بونوڤاش تموت جوعًا ببطء، كتبت راڤى نيسمان:

> تعود ذلك الشعب الذى يسكن الجبال البعيدة بعد حصار طالبان ولعنة الجفاف، أكل خبز مصنوع من الحشائش وقليل من دقيق الشعير. والرضع الذين جف اللبن فى أثداء أمهاتهم يأكلون عصيدة من الحشائش. والذين تهدمت أسنانهم من المسنين يمضغون الحشائش التى حولوها إلى ما يشبه البودرة. مات الكثيرون، ومرض العدد الأكبر. الجميع تقريبا مصابون بالجفاف والسعال. عندما يصبح ألم الصغار غير محتمل، تربط أمهاتهم قطعا من القماش حول أمعائهم، محاولة للتخفيف من حدة الألم! نحن ننتظر الموت. إذا لم يأت إلينا الطعام، إذا لم تتغير الظروف، سوف نستمر نأكلها (الحشائش). . . حتى نموت، هذا ما قاله غلام رازا، رجل يبلغ ٤٢ عاما يسعل بشدة، ويعانى من آلام المعدة، ونزيف فى الأمعاء (نيسمان، **الأفغان يأكلون الحشائش، والمعونات لا يمكن توصيلها لهم**، الجارديان، ٩ يناير، ٢٠٠٢م).

تقص نيسمان قصة خادا باكش، عامل سابق بمزرعة، الذى كان ينظر بيأس إلى بناته الأربع:

> منذ ثلاثة أسابيع مضت كان لأطفاله أم وأخت رضيعة. ماتت الاثنتان. استجدى خادا باكش جيرانه أن يمنحوه بعضا من دقيق الشعير الذى يزرعونه داخل منزلهم بحيث يمكن لأسرته أن تصنع أرغفة الخبز من الحشائش... من الأفضل أن نموت فى منزلنا، وليس فى مكان غريب ووسط الأغراب، كان ذلك ما قاله (المرجع السابق).

بفضل لامبالاة الساسة والميديا، لم يؤرق أى من هذه الروايات ضمير الشعب البريطانى.

عندما ضغطنا من أجل معرفة سبب التغطية النادرة للمأساة الإنسانية فى أفغانستان على شبكة آى. تى. إن. بينما ركزت انتباهها على الأسد، أجاب چوناثان مونرو، رئيس فريق جمع الأخبار فى. آى. تى. إن. بالتالى:

> لقد أوردنا بالفعل عدة تقارير عن المأساة الإنسانية للاجئى أفغانستان الذين تشردوا نتيجة الأحداث الحالية... لماذا هذا التركيز على الأسد؟ لأن الشكوى الدائمة لمشاهدينا هو فشل البرامج فى تتبع القصص، فلماذا لا نُحَدِّث معلومات المشاهدين بشكل كافٍ فيما يختص بالقصص التى سبق وأوردناها؟!.
>
> فى هذه الحالة، كانت هناك ثلاث مراحل: الأولى: مقابلة شخصية مع أطباء بيطريين بريطانيين وهم يغادرون المملكة المتحدة؛ والثانية: لمحة عن أول تقييم لحالة الحيوان؛ والثالثة: ملاحقة ما حدث بعد بدء العلاج. وهكذا اكتملت القصة، ولم نفكر فى العودة مرة أخرى إلى حديقة الحيوان (رسالة إلكترونية إلى داڤيد إدواردز، ٢٣ يناير، ٢٠٠٢م).

والحقيقة أن آى. تى. إن. عادت مرة أخرى إلى سرد القصة، وروت أن الأسد مات. استمرت لامبالاة آى. تى. إن. الغريبة بضحايا المأساة الإنسانية فى أفغانستان، وذلك بعدم وجود تغطية شاملة أو أخبار عن الموت الجماعى جوعًا للاجئين فى تلك الفترة نفسها.

على النقيض، فى ١٨ يناير ٢٠٠٢م، أعلنت منظمة «علاج بدون حدود» عن واحدة من الكوارث (المشكِّلة) التى أحاقت بشعب أفغانستان: الولايات المتحدة أسقطت قنابل عنقودية.

> ألقيت قنابل كثيرة على المناطق السكنية والمأهولة بالسكان، وحاول مركز «العمل فى الألغام» بكل طاقته التعامل مع كل الحالات الجسيمة. على أى حال، لم تكن أمامهم الموارد الإنسانية أو التنظيمية الضرورية لنقل الجرحى وإيوائهم، وغيرها من الموارد اللازمة لإخلاء الإقليم بشكل مناسب فى خلال فترة زمنية ملائمة.

واستمرت المنظمة فى تقريرها:

> كانت منظمة «علاج بلا حدود» تصادف فى غرفة عملياتها الميدانية عدداً كبيراً من المدنيين المصابين بالألغام أو القنابل المتفجرة (بما فيها القنابل العنقودية) أثناء الغارات الجوية الأمريكية القريبة فوق حيرات غرب أفغانستان، ألقيت عدة قنابل عنقودية فوق أماكن سكنية؛ مما تسبب فى عدد كبير من وفيات المدنيين والمصابين بجراح بالغة . . . وفقا للبيانات الرسمية لمنظمات مناهضة زرع الألغام المحلية والمستشفى الإقليمى فى حيرات، حدثت ٣٨ حالة وفاة، وعدد غير معلوم من الجرحى نتيجة للقنابل العنقودية التى تم تسجيلها حتى ذلك الحين. على أى حال، اعتقد بعض الأطباء فى مستشفى حيرات الإقليمى أن العدد أكبر بكثير. وفى قرية كالا شاكر بالقرب من مدينة حيرات وحدها توفى ١٢ شخصًا، وجُرح أكثر من ٢٠ نتيجة القنابل العنقودية (علاج بلا حدود، **القنابل العنقودية ميراث لسكان أفغانستان**، ١٨ يناير، ٢٠٠٢م، <www.msf.org>).

تحتوى كل قنبلة عنقودية على ٢٠٢ قنبلة، لا ينفجر منها حوالى ٢٠ فى المائة وقت قصف الهدف. تحتوى تلك الذخيرة على ثلاث آليات للقتل: ضد الدروع، وضد المقاومة، والحارقة، مكونة ذخيرة ثلاثية القتل. تخترق الشظيات التى تزن ٣٠ جرامًا سبيكة من الصلب سمكها ٦,٤ مم على مسافة ١١ مترا، والمضادة للدروع يمكنها

اختراق ١٩ سم من الصلب، تصيب شخصًا على ١٥٠ مترا. يمكن أن تنفجر بأدنى تغير فى المناخ ـ على سبيل المثال إذا سقط ظل شخص على قذيفة موضوعة فى الشمس ـ أو بالذبذبات البسيطة، أو حتى من الطاقة المنبعثة من جهاز إرسال.

ووفقا لتقرير مركز «العمل فى الألغام»، فإن أجولة الطعام الأمريكية والقنابل العنقودية كان يتم إلقاؤها فى المناطق نفسها. ورغم اختلافهما فى الشكل والحجم، فإن كليهما أصفر اللون، وكان كثير من الأطفال يلتقطونها [شظايا القنابل] معتقدين أنها تحوى طعاما (المرجع السابق). وعلى حد علمنا، لم تظهر كلمة واحدة عن ذلك فى آى. تى. إن. أو أخبار تليفزيون بى. بى. سى. بينما تم عرض مصير مارچان الأسد الأعور وتقديم علاجه بالتفصيل.

القتل كأول حل

إن المرض الأخلاقى الذى أصاب مجتمعنا، كشفه التناقض بين التغطية الحميمة المكثفة عن ضحايا الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر وبين الضحايا الأفغان فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١م. ففى بداية يناير ٢٠٠٢م، ذكر الكاتب الأمريكى إدوارد هيرمان أن التغطية الإعلامية عن موت ناثان تشاپمان ـ أول حالة وفاة، والوحيدة حتى تلك اللحظة، لمقاتل أمريكى ـ زادت عن التغطية لكل ضحايا الأفغان من القنابل والجوع. قيل إن والتر إيزاكسون رئيس شبكة سى. إن. إن. ذكر أن التركيز الزائد عن الحد على الضحايا أو المعاناة فى أفغانستان يعد حماقة **(هوارد كيرتس، رئيس شبكة سى. إن. إن. يأمر «بالتوازن» فى الأنباء التى ترد عن الحرب**، واشنطن پوست، ٣١ أكتوبر، ٢٠٠١م).

إنه أمر مفهوم، طالما أن الأفغان يفقدون أرواحهم بدون أسباب مقنعة. جادل البروفيسور ڤيكتور بولمر ـ توماس من المعهد الملكى للشئون الدولية، أنه بواسطة المزيد من إجراءات الأمن، وإجراءات ضد غسيل الأموال، وزيادة مشاركة أجهزة المخابرات حول العالم يمكن الحد من الإرهاب العالمى. وهو يؤيد اتباع مدخل يدرس أسباب الاستياء فى الشرق الأوسط، والسعودية والعراق. لكن بشأن القصف بالقنابل، فإن بولمر ـ توماس يوضح ـ وللأسف ـ أن وجود ذخيرة فى كثير من دول العالم يفاقم المشكلة. وكانت النتيجة التى توصل إليها غامضة بشأن شعب أفغانستان اليائس:

إذا كان أحد يعتقد بأن تفكيك إمكانات تنظيم القاعدة من خلال إزالة معسكرات تدريب الإرهابيين فى أفغانستان سوف يؤدى بشكل أو آخر إلى خفض مخاطر الهجمات الإرهابية فى المستقبل، فأخشى ألا يكون على صواب، لأن معسكرات تدريب الإرهابيين لا توجد بالضرورة فى أفغانستان وحدها، بل يمكن أن توجد فى أى مكان. وفى الواقع فإن الإغراء المتاح حاليا أمام القاعدة سيجعل مواقع تدريبهم تنتقل إلى أوروبا الغربية، وكندا، بل وحتى الولايات المتحدة. (بولمر ـ توماس، برنامج جوناثان ديميلى، آى. تى. ڤى.، ٢٧ يناير، ٢٠٠٢م).

فى الواقع، فإن الأمر الجدير بالاستغراب فى تغطية الميديا الغربية هو الرغبة الفورية فى قبول وتبرير حتى أكثر الحجج غرابة عن القتل الجماعى لشعوب العالم الثالث. ففى أبريل ٢٠٠٢م، كتب رورى كارول من الجارديان: إن أى أحد يحاول زعزعة استقرار أفغانستان فهو يقوم بعمل طيب. إن المدن المهدومة والتلال المحترقة التى تم تحريرها قريبا تعيد اكتشاف الخوف وعدم اليقين (عودة أمراء الحرب المتعطشين للدماء، الأوبزرڤر، ١٤ أبريل، ٢٠٠٢م). إن المدن المهدومة والتلال المحترقة لم تكن تكتشف الخوف ـ بعد تحريرها بالطبع. إن المجاعة الجماعية التى تفاقمت بفعل القصف بالقنابل وچنرالات الحرب المتأهبين، ضمنوا أن الخوف وعدم اليقين كانا موجودين دائما.

قبل شهرين من تعليق كارول، أوردت منظمة اللاجئين الدولية التقرير التالى:

مزيد من الهروب من أفغانستان، يؤكد انعدام الأمن هناك. ينتظر أكثر من ٢٠,٠٠٠ لاجئ أفغانى الوصول إلى پاكستان، والكثيرون فى طريقهم، وذلك وفقا لبيان المفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. وفى العام الحالى حتى الآن، فر أكثر من ٥٠,٠٠٠ أفغانى إلى پاكستان. إنهم يحاولون تفادى الجرائم والمعارك فى قراهم التى تتداخل مع تسليم الأغذية الضرورية بعد سنين من الجفاف (تدفق مهاجرين جدد من سكان التلال الأفغان الذين يفتقدون الأمن، وكالة اللاجئين الدولية، ٢٥ فبراير، ٢٠٠٢م).

قبل شهر واحد من تعليق كارول، أبلغت وكالات الشئون الإنسانية عما رأته وتساءلت: لماذا بعد ثمانية أسابيع من انتهاء أسوأ فصول الحرب فى أفغانستان، ظل الشعب يأكل الحشائش على بعد بوصة واحدة من خريطة الطرق السريعة من المدينة الأفغانية الكبيرة مزار الشريف؟ (چوناثان فريرتس، **كم عدد الموجودين هناك؟ الجوع فى أفغانستان**، ٧ مارس ٢٠٠٢م <www.lwr.org/news/02/030702.asp>).

تخيل ميديا بعض التحالفات الأجنبية الفائقة القوة وهى تصف كيف تم «تحرير» شعب يأكل الحشائش من الخوف عن طريق قصفه بالقنابل، وخلصتهم من عدم اليقين والفوضى!!

لا يجب السماح للحقائق بأن تشوه رسائل الدعاية الجوهرية، بمعنى:

١ ـ حررت القوات العسكرية الغربية أفغانستان من الخوف، وعدم اليقين والفوضى، إلا أن بعض المتطفلين الأفغان يقومون حاليا بتدمير عملنا الجيد.

٢ ـ تتصرف الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تصرفات طيبة لطيفة؛ والهجوم العسكرى الإنسانى شىء مفيد.

فى الواقع، هناك اختياران واضحان فى آثار كارثة هجمات ١١ سپتمبر ٢٠٠١م. كان لا بد لقادة الغرب من البحث عن مغزى وحقيقة الأسباب التى تكمن وراء هذه الهجمات؛ أو أن يستغلوا المأساة لتنفيذ السياسات والممارسات الحالية وتمديدها.

لكن رفض الميديا للبحث عن الدوافع وراء الهجمات على نيويورك والپنتاجون كان جاهزاً. فى الذكرى السنوية الأولى لوقوع الهجمات، تحدث توم كارڤر مذيع بى. بى. سى. عن معاداة الأمركة كمشكلة عن صورة أمريكا لدى العالم. وفكر بجهد عن جذور هذه الكراهية الفطرية، ذكر كارڤر الحسد، عدم مكافأة الحب أو مبادلته، كأسباب محتملة: يكره الكثيرون أمريكا لأنها لا تعيرهم مزيدا من الاهتمام! وأعلن عن ذلك بغموض وإلغاز (أخبار المساء، بى. بى. سى. ٢، ٥ سپتمبر، ٢٠٠٢م). فى نشرة أخبار المساء فى بى. بى. سى. لاحظ پيتر مارشال أن الكثيرين ممن كرهوا أمريكا كانوا غيورين من دور الولايات المتحدة فى العالم (نشرة أخبار المساء، بى. بى. سى. ١١ فبراير، ٢٠٠٣م). أضاف توم كارڤر مزيدا من التعليقات الحكيمة فى

البرنامج نفسه، مذكرا بأن الأمريكيين يحاولون التفكير فى الأفضل بالنسبة للبشر، والأمم، إلى حد السذاجة، ومع ذلك وفى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١م فى برنامج داقيد لاترمان، قرر چون ميلر من قناة إيه . بى . سى . ABC أن ابن لادن ذكر ثلاث شكاوى فى مقابلة معه قبل عدة سنوات . وهذه كانت : الوجود الأمريكى فى المملكة العربية السعودية، ومساندة الولايات المتحدة لإسرائيل، وسياسة الولايات المتحدة تجاه العراق .

وعن رد الفعل الملائم لهجمات القاعدة، وفى مقابلة شخصية مع چون ميللر، تساءل محرر أخبار المساء چيريمى پاكسمان :

> أنت تعيش فى نيويورك سيتى . . . لا بد أنك تستعيد بوضوح ما حدث فى ١١ سبتمبر فى العالم الذى نحيا فيه الآن، أليس ما حدث نوعا من الضربة الوقائية؟! وهو الخيار الدفاعى الوحيد المتاح لدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية؟ (نشرة أخبار المساء، بى . بى . سى . ٢، ١٨ فبراير، ٢٠٠٣م) .

تأمل ناعوم تشومسكى فى فكرة أن هذا النوع من الضربات الوقائية قد يكون هو الخيار الدفاعى الأفضل، أو الوحيد المتاح فى التعامل مع ـ ولْنَقُلْ ـ الصراع فى أيرلندا الشمالية :

> هناك أحد الخيارات يتمثل فى إرسال قوات غير نظامية لقصف مصادر تمويلهم بالقنابل، أماكن مثل بوسطون، أو نشر قوات كوماندوز للقبض على من تحوم حولهم الشكوك فى تورطهم فى مثل هذه الأمور، وقتلهم أو ترحيلهم إلى لندن لمحاكتهم **(تشومسكى، ٩ - ١١)**، دار نشر سبع قصص، ٢٠٠١م، ص٦٢ - ٦٣) .

وهناك احتمال عاقل آخر ـ حسب تعليق تشومسكى ـ هو التفكير بواقعية فى خلفية الشكاوى والمظالم، ومحاولة علاجها، وفى الوقت نفسه اتباع قواعد القانون لمعاقبة المجرمين (المرجع السابق) .

الأفضل قصفها بالقنابل

فى ٧ يناير ٢٠٠٣م، نشرت عدسات الميديا تحذيرات الميديا بعنوان : أهو عصر

إظلام أخلاقى؟! ملايين العراقيين الذين يعانون ـ إشارة فى الاقتصاد العالمى؟! <www.medialens.org> وذلك ردا على تعليق فى الإندپندنت كتبه المراسل الاقتصادى هاميش ماكرى. كتبنا إلى ماكرى فى ٢ يناير، ٢٠٠٣م:

العزيز هاميش ماكرى

قرأت أول مقال لك فى شهر يناير فى صحيفة الإندپندنت (فى عام كان على التوقعات الحقيقية ألا تؤدى إلى خيبة الآمال). لقد كتبت أن العام الماضى بدا كئيبا، لأن عددا ضئيلا للغاية من مشكلات بداية العام هو فقط الذى تم حله، لكنك أضفت أنه على الأقل فإن الحرب فى أفغانستان كانت ناجحة من حيث العمليات العسكرية. كان لا بد من وصف تلك الحرب بأنها مجزرة، مات فيها أكثر ٥,٠٠٠ أفغانى بسبب القصف بالقنابل، وربما مزيد من الوفيات أكثر من ٢٠,٠٠٠ من آثار القصف **(الجوع أو المرض)**، وهو أمر لم يرد له ذكر. لماذا؟

كذلك أدركت بشكل صائب أن التساؤل الرئيسى يظل مفتوحا، ولا تزال تهديدات الإرهابيين مستمرة، مما يتناقض بالتأكيد مع ادعائك بأن الحرب كانت ناجحة من الناحية العسكرية. طالما ظل التخلص من بن لادن ومن تهديدات تنظيم القاعدة هو الهدف الواضح للحرب فى واشنطن ولندن.

أتشوق لمعرفة ردك. المخلص

داڤيد كرومويل

(رسالة إلكترونية إلى هاميش ماكرى، ٢ يناير ٢٠٠٣م)

رد من هاميش ماكرى، ٢ يناير، ٢٠٠٣م:

عزيزى السيد كرومويل

شكرا على رسالتك الإلكترونية. لقد استخدمت عبارة «من منطلق العمليات العسكرية» بتعمد، كما أشرت أنت بحق إلى ذلك، فإن التكاليف كانت باهظة من الناحية الإنسانية. وأنا على أى حال لا أتقبل مصطلح مجزرة.

أعتقد أنه من المعقول توضيح أنه فى السنوات القادمة، فإن الشعب الأفغانى ـ وبخاصة النساء ـ سوف يعيشون حياة أفضل من تلك التى عاشوها فى ظل حكم طالبان. هذه المكاسب الإنسانية لا بد من وضعها فى الاعتبار. وإن كنت لم أتوسع فى الأعباء الإنسانية، فإننى كذلك لم أؤكد على هذه المكاسب الإنسانية، إن تلك مقالة ذات نطاق واسع حول التهديدات التى يواجهها العالم فى السنوات التالية، وليست هذه الحرب بالذات، لو كنت أطلت عليك فقد كنت أبحث عن الإبقاء على هذا التوازن، رغم أننى بالطبع لا أتوقع أن يكون مَنْ يقفون على الجانب الآخر من المناقشة يتفقون معى.

أما إن كان الموضوع متعلقا بالنجاح أو الهجوم، أعتقد أنه من المناسب القول (أنه) كان ناجحا، بمعنى أنه ساعد فى إنهاء النظام الذى وفر الحماية لأسامة بن لادن، وأنه مزق بوضوح شبكة القاعدة. وانتهت على سبيل المثال معسكرات تدريب القاعدة، وهكذا فإنه بكل تأكيد التهديد حاليا أقل عما لو كان الهجوم لم يتم.

أتمنى أن يكون ما قدمته مفيدا.

تحياتى وشكرا لاهتمامك المخلص

هاميش ماكرى

لمزيد من الاطلاع على الرسائل المتبادلة، بما فى ذلك متابعة تفنيد آراء هاميش ماكرى، ارجع إلى موقع الميديا «الأفضل قصفها بالقنابل ـ العراق، قصف أفغانستان بالقنابل والشفقة الانفصالية ٢٠ يناير ٢٠٠٣م <www.medialens.org/alerts>. إن الملمح الأساسى لنظام الدعاية، هو أن يظل هؤلاء الصحفيون الخبراء يثرثرون عن المكاسب الإنسانية المزعومة التى تنشأ من الهجمات الغربية الوحشية على دول العالم الثالث، وهم بذلك يرددون صدى العبارات الطنانة للساسة الغربيين. إن ترادف هذه البيانات اللانهائية عن الفضائل الغربية، بمثابة تصنيف ميديا الاتجاه السائد للمخالفين لهم فى الرأى على أنهم حمقى. ولنتأمل هذا المثال من الجارديان:

فى ٨ ديسمبر ٢٠٠١م، أصدرت عدسات الميديا تحذيرات: المعارضون يتم طردهم على أنهم شخصيات أنانية غاضبة مضللة (www.medialens.org). ركز الإنذار على

مقال كتبه روری كارول من الجارديان بشأن الروائى المعارض جور ڤيدال (كارول، إننا لا نعرف إلى أين نسير؟ الجارديان، ٦ ديسمبر، ٢٠٠١م). أرسلنا التحذير إلى كارول وتلقينا هذا الرد فى ١١ يناير، ٢٠٠٢م:

عزيزى داڤيد

شكرا على الرسالة الإلكترونية، وآسف على تأخر الرد، لقد كنت فى أفغانستان لمدة خمسة أسابيع، ولم يمكننى الوصول لهذا الموقع. إن بعضًا من ملاحظاتك عن طبيعة الميديا المماثلة لطبيعة مؤسسات الأعمال (business)، وكيف يفسد ذلك استقلاليتها أمور أوافق عليها. إن بعضًا من التغطية عن أفغانستان وباكستان منذ سبتمبر [٢٠٠١م] كانت مخزية. لكن ملحوظتك الأساسية عن القطعة التى كتبتها عن ڤيدال وأنها تتطابق مع التآمر لتشويه سمعة مثل هؤلاء المثقفين كانت خاطئة. لم يخبرنى أحد عما علىَّ أن أكتبه، وليس لدىَّ علم عن برنامج خفى، أو توقع لما ستجرى عليه الأمور. إن ما كتبته يتناسب مع ما اعتقدته بشأن هذا الشخص. يبدو أنك تشارك ڤيدال كثيرًا من وجهات نظره، أما أنا فلا، فقد كنت فقط أبعث بتقرير عن انطباعاتى. لكننى كذلك أوردت وجهات نظره بدقة. أنت مؤهل لاعتبار آرائى باهتة وساذجة، لكن تجاهلها على اعتبار أنها ملطخة كمؤسسات الأعمال، لا يبعد كثيرًا عن اتهامك لى.

تحياتى

رورى

نحن نتفق معك فى أن «بعض تغطيات أفغانستان وباكستان منذ سبتمبر كانت مخزية» لكننا نعتقد أن التعليقات قليلة المعنى ـ ولا تهم درجة أمانة ودقة أداء الميديا، لأنه ـ مهما كان ما يجب أن تتحلى به الميديا من دقة وأمانة ـ فإن الرأى الشخصى سوف يؤكد دائما على أن بعض التغطية مخزية.

كما سبق وناقشنا، فإن الجارديان قدمت شذرات طفيفة فى تغطيتها لضحايا كوسوڤو وضحايا أفغانستان فى مأساة يحمل الغرب مسئوليتها إلى حد كبير. لكن

ذلك ليس الموقف الوحيد. فمن ناحية، قدمت الجارديان ـ مثلها مثل مؤسسات الميديا الأخرى ـ باستمرار تغطية كثيفة عن جرائم الأعداء: النازى الألمانى، كمبوديا فى ظل حكم الخمير الحمر، العراق فى ظل نظام صدام (فى التسعينيات) وصربيا فى ظل حكم ميلوسوفيتش. ومن ناحية أخرى، فإن نفس هذه الميديا قدمت أدنى حد من التغطية عن جرائم نتحمل من مسئوليتها: تلك التى ارتكبت فى شيلى فى فترة حكم بينوشيه، وجواتيمالا فى ظل حكم أرماس، وإندونيسيا فى ظل حكم سوهارتو، وإيران فى ظل حكم الشاه، والعراق فى ظل حكم صدام (فى الثمانينيات)، وأفغانستان حاليا، وتركيا حاليا، وكولومبيا حاليا، وغيرها. مقالات فردية مخزية على انفراد، إن ذلك النمط الأساسى يكشف عن أن الجارديان الليبرالية ـ مثل شركات الاتجاه السائد دائما ـ تعمل كنظام دعاية واقعى يعزز ويحمى المصالح المشتركة للدول.

لكن كل ذلك لا يعنى على الإطلاق أننا نقترح شكلا من أشكال التآمر. كتب كارول أننا اتهمناه بكتابة مقال يتناسب مع مؤامرة أوسع لتلويث مثل هؤلاء المثقفين، بل إنه أوضح أننا تخيلنا أنه ربما اتبع خطا يمثل المنهج المطلوب، أو ربما كانت لدى المحرر المفوض توقعات قائمة على برنامج خفى. كل ما يمكننا قوله إننا وجدنا مثل تلك الإيضاحات غير مألوفة؛ لم نذكر شيئا من التآمر فى برنامج إنذارات الميديا الخاص بنا، ولن نفعل ذلك فى أى مكان فى كتاباتنا، كان ذلك تفسير كارول (الخاطئ) عما كتبنا.

كثيرا ما قابلنا رفض مثل هذا الرجل «الزائف» لعملنا. وكما لاحظ محلل الميديا الأمريكى إدوارد هيرمان:

> إن نقاد الميديا اليساريين دائما ما يثيرون الاتهام بالتآمر، وذلك لأن العاملين فى الميديا والمدافعين عن مؤسسات الميديا خاملون لدرجة أنهم لا يفحصون بدقة القضية التى يعرضها النقاد اليساريون، أو يفهمونها، أو أنهم سعداء بالإبقاء على تكتيك تشويه السمعة. (كتل من بيت المجانين، مجلة Z، نوفمبر ٢٠٠١م).

عندما حاورت عدسات الميديا مقدم أخبار القناة الرابعة چون سنو عام ٢٠٠١م، قال عن جدالنا:

> ما أسهل أن يلوم المأجورون المؤسسات بزعم أنها تتآمر لمنعهم مناقشة الأحداث. . .

يمكننى أن أخبرك أنه إذا طلبنى على التليفون شخص من پيپسى كولا ـ وكان يجب علىّ أن أقول إننى لم أتلق مكالمة من أى مؤسسة، فهل يعنى هذا أنى لقد قدمت لهم حـلاً من الإثم! (مـقـابلة شـخـصـية مع داڤـيـد إدواردز، ١ يناير ٢٠٠١م
<wwwmedialens.org/ar(ticles_2001/de_jon_sow_interview.htm>.

عندما أكدنا لسنو أننا لم نعتقد لبرهة قصيرة أن تحيز الميديا يعد مؤامرة، أو حتى عن وعى، أجاب: حسنا، أنا آسف لأن أقول إن شيئا من ذلك يحدث أو لا يحدث. فإذا حدث ذلك فإنه يعد مؤامرة، أما إذا لم يحدث فهو لا يعد مؤامرة. مثال صارخ على ما أسماه هيرمان: تحليل على مستوى كتب الفكاهة (هيرمان، كتل من بيت المجانين) وبالمثل فإن فى اللقاء الشهير: دمدمة فى غابة الميديا، التى عقد فيها محرر الإندپندنت السابق أندرو مار مقابلة مع ناعوم تشومسكى، قال مار: الفكرة أن تحذير أورويل [حول رقابة الفكر والدعاية] الذى ما زال وثيق الصلة بالموضوع قد يبدو عجيبا (الفكرة الكبيرة، بى. بى. سى. ٢، ١٤ فبراير ١٩٩٦م). طلب مار من مستمعيه التأمل فيما إذا كان من الممكن أن تكون الميديا قد تم تصميمها للحد من كيفية تخيلك للعالم؟؛ إلا أن الفكرة الشاملة التى يطرحها تشومسكى أن عملية رقابة الفكر فى المجتمعات الديمقراطية لا تحدث من خلال عمليات تآمرية، من خلال آلية طريقة الأخ الأكبر، بل نتيجة لقوى السوق الحرة. يكمل مار: ما لم أستطع فهمه، أن كل ذلك يقترح.. أن أشخاصا مثلى لديهم رقابة ذاتية!. تشومسكى لا يوافق: لم أقل إنك ذو رقابة ذاتية. أنا على يقين من أنك تؤمن بكل شيء ذكرته. لكن ما أقوله هو أنه إذا ما كنت قد آمنت بشيء مختلف، فلم تكن لتستطيع أن تكون فى الوضع الذى تحتله الآن.

إن ما لم يتوصل إليه مار ـ مثله فى ذلك مثل كارول ـ أن هذه المجادلات العدائية لا تعتمد على رقابة ذاتية تآمرية، ولكن على نظام للترشيح حافظت عليه قوى السوق الحرة ـ ضغوط الحد الأدنى، ونفوذ المالكين، وأهداف الشركات الأم وحساسياتها، واحتياجات المعلنين، ونفوذ الحكومة الودود لمشروعات الأعمال، ومدفعية العلاقات العامة للمؤسسات ـ التى تقدم التحيز عن طريق تهميش البدائل، وتقدم الحوافز للتكيف؛ بينما تقدم الخسارة جزاءً لعدم التكيف.

هذا هو كل ما نود توضيحه لروری كارول، نحن نوضح أنه جزء من نظام مؤسسات الميديا الذی يختار بدقة لبعض المحررين، ولصحفيين معينين، معتقدات بعينها، ووقائع بعينها، وضحايا معينين، وجرائم معينة ضد الإنسانية. هذا النظام تم انتقاؤه لكل من هاميش ماكرى، وروری كارول، وتيموثی جارتون ـ آش، وجای راينر، وچون سنو، وداڤيد رييف، وتشارلز چينجز، وچو چوزيف وآخرين. كل ما نقوله هو أنهم إذا ما اعتقدوا شيئا مخالفا لما تراه مؤسسات الميديا لما جاءوا إلى المواقع التی يشغلونها.

نظرة من الخارج إلى الداخل.

عدسات الميديا وريتشارد سامبروك مدير أنباء بی. بی. سی.

من ريتشارد سامبروك فی ٢١ يناير ٢٠٠٢م:

عزيزی السيد كرومويل

> شكرا على رسالتك الإلكترونية عن التغطية فی أفغانستان. آسف أنك شعرت بأننا لم نعط التفاتا كافيا لكارثة اللاجئين. على أی حال نحن لم نتجاهل معاناة المدنيين الأفغان. ربما لم نتمكن من الحصول على فرصة للاطلاع على برنامج مراسل بی. بی. سی. المسائی: الفاقدون كل شیء، حصل تاغی آميرانی على فرصة نادرة للوصول إلى معسكر اللاجئين فی ماكاكی بالقرب من الحدود الأفغانية الإيرانية. كان يريد سماع أصوات الأفغان البسطاء، يرى الحرب ضد الإرهاب من خلال عيونهم، ويقف على شكل الحياة الحقيقی فی معسكر للاجئين. تضمن البرنامج صورا عن عبد الستار شريف ـ سائق من كابول ـ الذی قال: إذا مات أمريكی واحد سمع العالم كله عنه. لكن الأفغان يموتون يوميا ولا أحد يسأل مَنْ قُتل؟ ولا كيف ُقتل؟! انظر إلیَّ! لقد فقدت زوجتی وطفلی، والآن أعيش فیَ أوساخ، ولا أحد يهتم!.

هذا الصباح، جاء فی برنامج اليوم على محطة الإذاعة ٤ تقرير لأندرو كيليجان من كابول عن حجم المساعدات المطلوبة. تلا ذلك مقابلة شخصية مع كلير شورت، سكرتير التنمية الدولية، حول ما قام به المجتمع الدولی لتقديم المساعدة.

أدلى چوناثان تشارلز بتقرير عن معاناة الشعب الأفغانى فى يوم السبت هذا فى نشرة الأخبار التليفزيونية على بى . بى . سى . (١٩ يناير) قال : ذلك يبين السبب فى أن المال المطلوب يدعو لليأس تماما . تعيش شوارع كابول فى دمار تام من جراء القصف . يعيش الكثيرون حياة بائسة وسط الحطام . هذا الرجل فقدأحد رجليه عند سقوط قنبلة على الأرض ، ويأمل فى أن تقدم المعونة الأجنبية مستقبلا أفضل للأفغان . قال : نحن فى فصل الشتاء ، والناس فى حاجة عاجلة لإعادة بناء منازلهم ليهربوا من برودة الجو ! .

أوردت إشبل ماثيسون تقريرا من كابول لأخبار قناة بى . بى . سى . التليفزيونية حول الوضع المخيف لصحة النساء :

تظل أفغانستان مكانا يحيق به الخطر ، ومن الصعوبة السفر خارج العاصمة . يخطط داڤيد ليون ـ الذى عمل مراسلاً من تلك البلاد منذ سنوات طويلة ـ للسفر ومعه طائرة معونات إلى معسكر اللاجئين فى المسلخ ، لكن التوقيت فى يد وكالات المعونة . إن لشبكة أخبار بى . بى . سى . تاريخًا طويلاً فى التغطية فى أفغانستان ، حتى عندما لم يكن هناك مراسلون آخرون . افتتح مكتب بى . بى . سى . فى كابول فى ١٩٨٩م . عندما طردت كات كلارك أحدث مراسلة فى مارس ٢٠٠١م ، كانت المراسلة الغربية الوحيدة فى كابول .

ورغم أن ذلك لا يعنى أننا يمكن أن نورد تقارير يومية عما يحدث هنا ، فإن ذلك التزام سوف نحافظ عليه فى المستقبل . آمل أن تستطيع هذه الأمثلة التخفيف من الغضب حول تجاهل أخبار بى . بى . سى . كارثة مدنيى أفغانستان . شكرا لأنك اقتطعت من وقتك لترسل لى تعليقاتك .

المخلص

ريتشارد سامبروك

ردت عدسات الميديا فى ٢٢ يناير ، ٢٠٠٢م :

عزيزى السيد سامبروك

جزيل الشكر لردك الفورى . لقد شاهدت بالفعل مراسل مساء الأحد . إنه

كان يتحرك، لكنه لم يُعْط وصف الرعب الحقيقى للأوضاع فى أفغانستان حقه. قرر تاغى آميرانى فى النهاية أن ٣٥٠٠ أفغانى مدنى فقدوا حياتهم، ولم يذكر السبب الحقيقى لوفاتهم. وكما نعرف، إن ذلك تقدير متحفظ عن ضحايا القنابل وحدها. إلا أنه فى ٣ يناير ذكرت الجارديان الظروف التى يعيش فيها ٣٥٠,٠٠٠ لاجئ أفغانى فى معسكر المسلخ، على بعد ٣٠ ميلا من مدينة حيرات. وصف دوج ماكنلى كيف أن ١٠٠ من هؤلاء اللاجئين يموتون يوميا من التعرض للقصف أو من الجوع (كارثة بحجم كارثة ١١ سبتمبر تحدث كل شهر) وفى ٩ يناير، ذكرت الجارديان أن القرويين الذين ماتوا جوعًا فى بوناقاش كانوا يقتاتون على وجبة من الحشائش ـ هذه المعاناة كانت أسوأ بشكل لا مثيل له من كل ما تم تصويره فى فيلم آميرانى.

قبل بداية القصف، حذرت وكالات المعونة باستمرار من أن تهديد القصف يعرض حياة عدد كبير من المدنيين، يصل إلى ٧,٥ ملايين مدنى أفغانى، للخطر.

منذ بداية الهجوم، أكدت هذه الوكالات أن الاضطراب والفوضى والرعب الذى سببه القصف بالقنابل كان مسئولا بالفعل عن مزيد من المعاناة الإضافية، وعن مزيد من الموت الجماعى للأفغان. لم توجد إشارة لذلك فى فيلم آميرانى، وكذلك لم يذكر شيء عنها فى شبكة بى. بى. سى. وآى. تى. إن. هذا العام.

لقد أشرت إلى عدد ضئيل من التقارير التى تناولت كارثة المدنيين الأفغان. لكن التغطية كانت غير ذات معنى مقارنة بتغطية بى. بى. سى. (الفورية) عن اللاجئين إبان أزمة كوسوڤو فى ١٩٩٩م. وكانت توجد تقارير يومية عن الرعب الذى يواجه اللاجئين، والآن لا يوجد ذكر لشيء تقريبا. إن التناقض لا يمكن أن يكون أكثر مأساوية مما حدث. كيف تفسر هذا الفرق؟ إن صعوبة تصوير الأفلام داخل أفغانستان لا يفسر ذلك، ولا يبرره. وعلى أقل القليل، فإن بى. بى. سى. كان يمكنها تخصيص مزيد من التغطية للاجئى أفغانستان الذين عبروا الحدود إلى باكستان.

في كلمتك في ديسمبر الماضي لجمعية التليفزيون الملكية، قلت: إن مشاهدة الأخبار عبر كل القنوات حاليا انخفضت بنسبة ٢٥ في المائة. . . وهناك حاليا تقسيم سياسي جديد: لم يعد الأمر بعد «يسار» و «يمين»، الأمر الآن «نحن»، و«هم»، و«هم» هنا هم الساسة، والمؤسسة الرسمية، والمذيعون، والميديا. . حوالي ٤٠ في المائة من المستمعين يشعرون أنهم في الخارج وينظرون إلى الداخل، وأن الخيارات الحقيقية أمامهم ضئيلة (داڤيد ليستر، «قنبلة موقوتة» مشاهدون أقل يشاهدون أخبار التليفزيون، الإندپندنت، ٥ ديسمبر، ٢٠٠١م).

إنه من المعقول تماما أن تبدو بي. بي. سي. للجمهور كجزء «منهم» ـ المؤسسة. إن تغطية بي. بي. سي. الإخبارية في أفغانستان ـ كما في قضايا هامة أخرى ـ تشير بوضوح إلى أن بي. بي. سي. تنظر بتحيز إلى مؤسسات النفوذ الغربية. من الصعب تجنب الانطباع بأن أداء بي. بي. سي. تشرحه حقيقة أن معاناة لاجئي كوسوڤو كانت تستخدم كأداة دعاية قوية لدعم سياسة حكومة المملكة المتحدة [إذ كان من الممكن في هذه الحالة إلقاء اللوم على الصرب] في ١٩٩٩م، بينما تمثل معاناة اللاجئين الأفغان مأزقًا حقيقيّا للحكومة البريطانية.

نحن نعتقد أن تقارير بي. بي. سي. محرَّفة للغاية بسبب افتقارها إلى الاستقلال عن نفوذ الحكومة وأيديولوچيتها، خاصة عندما تكون السياسة الخارجية هي المعنية. الشيء المحزن أن التغطية الهزيلة لقناة بي. بي. سي. عن الموت الجماعي بين اللاجئين الأفغان تضيف قوة كبيرة للجدال بأن صحافتنا الحرة هي ـ في واقع الأمر ـ دجل وخداع.

عندما حاولت عدسات الميديا سؤال السيد آميراني عن وجهة نظره حول الحد الأدنى من التغطية في بي. بي. سي. لمعاناة الأفغان هذا العام ـ وأشارت كمثال إلى الكوارث التي لم يقدم عنها أية تقارير في المسلخ وبونوڤاش ـ كانت كل أسئلتنا الجدالية عن أداء بي. بي. سي. [ليست هذه الكلمة قوية أكثر من اللازم] عن طريق فريق المراسلين على الخط. وفيما يلي ما تبقى من محاولتنا في أن ندخل مناقشة صريحة وعلنية:

كنت متأثرا من الأعماق بشجاعة وعاطفية فيلمكم. مس القلب رؤية الناس فى أفغانستان ـ بما فيهم طالبان ـ وهم يعرضون كبشر. إن معاناة الشعب الأفغانى مأساة مفزعة. خالص شكرى الحار لإنسانية فيلمكم. ونأمل أن يقدم بعض التخفيف من معاناة مَن التقيتم بهم من الناس.

داڤيد إدواردز، إنجلترا

سمح بنشر كل من المقدمة والخاتمة المليئتيْن بالتهانى، لكن لم تنشر أى كلمة اعتراض هل تداخلك الدهشة كما ذكرت فى كلمتك فى ديسمبر الماضى من أن المستمعين يشعرون أنهم فى الخارج، ينظرون للداخل، وأنهم يشعرون بأن ما يقدم لهم هو أقل خيار ممكن متاح؟!.

المخلص

داڤيد كروموِيل

محرر مشارك فى مشروع عدسات الميديا

لم يرد علينا ريتشارد سامبروك.



هذا الكتاب

أهم وسائل الإعلام اليوم، وأكثرها انتشارًا وتأثيرًا «قنوات التليفزيون».. وهى إما تتبع الحكومات، أو المؤسسات الخاصة، أى تتبع أصحاب رءوس أموالها، وغالبًا ـ وطبيعيّا ـ ما تهدف رءوس الأموال إلى حماية مصالحها والترويج لها...

وكما أن هناك فارقًا رئيسيّا فى طبيعة وعمل مؤسسات الميديا التابعة للحكومات عن تلك التابعة لمؤسسات الأعمال الخاصة (أو لرأس المال الخاص)، فهناك أيضًا فارق كبير نوعى، فى عمل المؤسسات الأخيرة فى الغرب عندما تغطى الموضوعات المحلية، عن عملها عندما تغطى الموضوعات الدولية، والتى ينقسم فيها العالم إلى الغرب والآخرين (The West & The Rest).

وفى هذا الكتاب الذى نشرته دار «پلوتو» الإنجليزية، يناقش المؤلفان طبيعة عمل مؤسسات (الميديا الغربية الليبرالية) ويستعرضان غزو العراق وأفغانستان، كحالتى دراسة نموذجيتين.

هذان المؤلفان

داڤيد إدواردز: هو مؤلف «كشف كل الأوهام» الصادر من دار نشر ساوث إند، عام ١٩٩٦م، و «الثورة الرحيمة» الصادر من دار نشر جرين بوكس، عام ١٩٩٨م.

داڤيد كرومويل: هو مؤلف «الكوكب الخاص» الصادر من دار نشر چون كارپنتر، عام ٢٠٠١م، www.private-planet.com، وهو باحث فى مركز جغرافية المحيط القومى، ساوثهامپتون، المملكة المتحدة.

عادل المعلم


6223002802432